تفسير
سورة ألم نشرح

حُقوق الطّبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

منشورات:

المركز الإسلامي للدراسات

بيروت. بئر العبد. مبنى الإنماء 3

هاتف: 00961/70995421

تفسير
سورة ألم نشرح

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

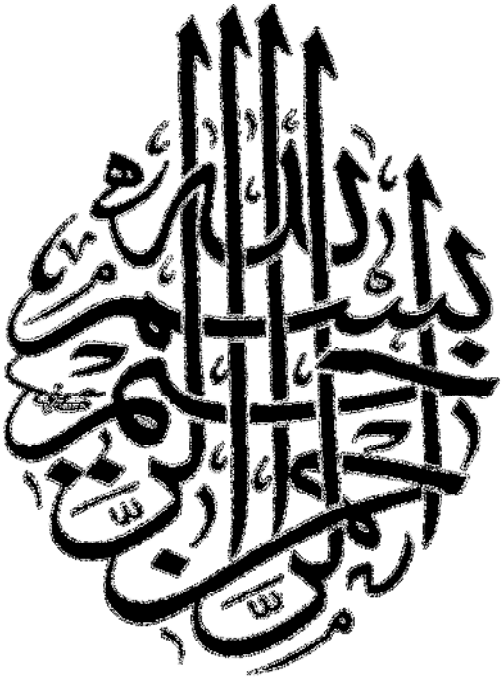

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ
وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ
وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)[1].

---

(1) آيات سورة الإنشراح.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطاهرين.. واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين..

وبعد..

فإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين.. وسورة «ألم نشرح» قد جاءت لتبشير صفوة الخلق، وسيد الكائنات محمد «صلى الله عليه وآله» بظهور دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، والكافرون.

ثم لتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات باستخلافهم في الأرض حتى يكونوا الأئمة فيها، والوارثين، حيث يتحقق وعد الله، ويفرحون بنصره تبارك وتعالى..

وقد أحببت أن يكون لي نصيب من المثوبة على لفت نظر

الشباب المؤمن إلى بعض هذه المعاني التي ألمحت إليها هذه السورة المباركة. فكانت حصيلة بعض الجلسات التي عقدت لهذا الغرض، هذا الجهد المتواضع الذي أقدمه إلى الإخوة الأكارم حفظهم الله ورعاهم، وسدد على صراط الحق، والخير، والهدى والصلاح خطاهم.

وآمل من كل من اطلع على هذا الجهد أن يتحفني بما يراه فيه من قصور أو تقصير، أو أخطاء، فإن العصمة لله وحده. وهو نعم المولى، ونعم النصير.

وإنني أشكر جميع من ساهم أو أسهم في إخراج هذا الكتاب على هذا النحو..

وأسأل الله عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان أعمالهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفي محمد وآله الطاهرين..

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول:

شأن النزول.. وأمور أخرى..

بداية:

تسمى هذه السورة المباركة في المصاحف المطبوعة بسورة «الشرح»، ولكننا آثرنا تسميتها بـ «ألم نشرح»، لأن هذه هي نفس التسمية التي وردت في الرواية المروية عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وفيها: «من أكثر قراءة، والشمس، والليل، والضحى، وألم نشرح في يوم أو ليلة لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة، حتى شعره وبشره، ولحمه، ودمه، وعروقه، وعصبه، وعظامه»[1].

سورة واحدة أم سورتان؟!:

وحيث إن الروايات قد صرحت بأن سورتي: الضحى، وألم نشرح، هما سورة واحدة، فقد رأينا أن نقدم الإشارة باختصار شديد إلى هذه النقطة بالذات، فنقول:

في الرواية الصحيحة عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله «عليه السلام» الفجر، فقرأ الضحى، وألم نشرح في ركعة[2].

---

(1) البرهان (تفسير) ج8 ص309.

(2) تهذيب الأحكام ج2 ص72 حديث 266 و 264 والإستبصار ج1 ص317

وفي مجمع البيان روى أصحابنا: أن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، وكذا سورة ألم تر كيف، ولإيلاف قريش[1].

وروى المحقق في المعتبر، عن كتاب الجامع، لأحمد بن محمد بن أبي نصر، عن المفضل بن صالح.

وروى العياشي عن المفضل بن صالح، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: سمعته يقول: لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة، إلا الضحى، وألم نشرح. وألم تركيف، ولإيلاف قريش[2].

وقد استدلوا بهذه الروايات على أنهما سورة واحدة.

وقد ادعي الإجماع من الإمامية على هذا الأمر[3]، وخالف في ذلك المحقق[4].

وقال الرازي: يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان: هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة. وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بـ **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ**

حديث 1182 و 1183 والوسائل ج6 ص54.

(1) وسائل الشيعة ج6ص55 و 56 عن مجمع البيان ج5 ص507 وعن المحقق في الشرايع ج1 ص83.

(2) وسائل الشيعة ج6 ص55 عن مجمع البيان ج5 ص544 وعن المعتبر ص178.

(3) راجع: أمالي الصدوق ص740 والاستبصار ج1 ص317.

(4) الحدائق ص8 ص202.

الرَّحِيمِ)[1].

البسملة جزء من كل سورة:

ولعل هذا مبني على ما ذهب إليه غير الشيعة، من أن البسملة جزء من سورة الفاتحة فقط، وأما سائر السور فليست جزءاً منها، ولكن البسملة كانت تكتب بين السورتين للفصل بينهما فقط.

ونقول:

إن هذا الكلام مرفوض من أساسه، لأنه يفضي إلى القول بزيادة مئة واثني عشرة آية في القرآن، وقد اتفق المسلمون على عدم الزيادة فيه.

وقد بحثنا هذا الموضوع بصورة مفصلة في كتابنا: حقائق هامة حول القرآن الكريم، وقلنا: إن كثيراً من غير الشيعة يقولون: إن البسملة ليست أيضاً آية حتى من سورة الفاتحة، فراجع[2].

ونضيف إلى ما تقدم: أنه قد روي ما يلي:

1 - عن ابن عمر: نزلت **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** في كل سورة[3].

2 - وعن النبيّ «صلى الله عليه وآله»: من ترك **(بِسْمِ اللهِ**

---

(1) تفسير الرازي ج32 ص2.

(2) حقائق هامة حول القرآن الكريم (ط سنة 1431هـ.ق.) ص489 - 498.

(3) أسباب النزول ص10 والإتقان ج1 ص79 والدر المنثور ج1 ص7.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؛ فقد ترك آية من كتاب الله[1].

3 - عن ابن عباس: إن الشيطان استرق من أهل القرآن أعظم آية في القرآن: **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**. وبمعناه غيره[2].

4 - عن ابن المبارك: من ترك **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**: فقد ترك مئة وثلاث عشرة آية، وكذا عن ابن عمر، وأبي هريرة[3].

5 - وعن أمير المؤمنين «عليه السلام» قوله: آية من كتاب الله، تركها الناس[4].

وأخيراً.. فقد قال الرازي في تفسير قوله تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[5].

«..قال أصحابنا: في هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية

---

(1) التفسير الكبير ج1 ص196 والدر المنثور ج1 ص7 عن الثعلبي، وبمعناه في جواهر الأخبار والآثار، (بهامش البحر الزخار) ج2 ص248.

(2) السنن الكبرى للبيهقي ج2 ص50 والدر المنثور ج1 ص7 عن سنن سعيد بن منصور، وأبي عبيد، وابن خزيمة، والبيهقي، والإتقان ج1 ص78 والمستصفى ج1 ص104 وفواتح الرحموت (بهامشه) ج2 ص15.

(3) التفسير الكبير ج1 ص208 وراجع: الدر المنثور ج1 ص7، وفواتح الرحموت، (بهامش المستصفى) ج2 ص15.

(4) جواهر الأخبار والآثار، (بهامش البحر الزخار) ج2 ص245، وراجع: المصنف للصنعاني ج2 ص91 من قول الزهري وعطاء..

(5) الآية 9 من سورة الحجر.

من كل سورة؛ لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن. والحفظ لا معنى له، إلا أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان.

ولو لم تكن التسمية من القرآن، لما كان القرآن مصوناً عن التغيير، ولما كان محفوظاً عن الزيادة.

ولو جاز أن يظن بالصحابة: أنهم زادوا لجاز أيضاً: أن يظن بهم النقصان، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة»[1].

أما فيما يرتبط بالبسملة بين سورتي الضحى وألم نشرح، مع أنهما سورة واحدة، فقد قال آية الله السيد الخوئي «رحمه الله»، ونعم ما قال:

«فالصواب في الجواب: أن مجرد اشتمال السورة على البسملة، لا يقتضي تغايرها عن غيرها ولا يكشف عن التعدد، وإن كان الغالب كذلك. لكنه ليس بدائمي، إذ لا دليل عليه»[2].

على أننا نجدهم يروون عن الصحابة قولهم: إن الصحابة ما كانوا يعرفون انتهاء السورة، وابتداء غيرها إلا بعد نزول: **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**»[3]، فقولهم هذا يدل على أن الحكم بالإبتداء

---

(1) التفسير الكبير ج19 ص160.

(2) راجع: المستند في شرح العروة الوثقى (ط سنة 1421هـ. ق) ج14 ص330.

(3) راجع: الجامع لأحاكم القرآن ج1 ص95. راجع : مقالة العلامة السيد أبو

والإنتهاء للسورة كان استظهارياً، اجتهادياً من الصحابة استناداً إلى قرينة زعموا أنها تكفي لاستنباطهم هذا..

مع أن نفس قولهم هذا يدل على أن البسملة كانت تنزل من عند الله عند ابتداء السورة الأخرى، ونزول هذا يدل على أنها جزء مما بعدها.. وإلا فلا حاجة لإنزالها من جديد، بل يعتمد على الرسول نفسه في قراءتها، لأنها كانت قد أنزلت من قبل.

مع أن هذا يبقى مجرد استنباط، يستند إلى قرينة لا تنحصر دلالاتها فيما ذكروه وفقاً لما نقلناه عن آية الله السيد الخوئي آنفاً..

لاسيما إذا كنا لا نتعقل صحة ما استندوا إليه، فإن بعض الآيات كانت تنزل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» لمعالجة حادثة معينة كآيات الإفك مثلاً، أو آية **(بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)**[1]، فهل كان «صلى الله عليه وآله» حين يقرؤها في مناسبة الإفك مثلاً لا يقرأ قبلها البسملة؟!

مع أن آيات الإفك جزء من سورة فيها آيات أخرى نزلت في

الفضل مير محمدي، في مجلة الهادي سنة 5 عدد 3 وفتح الباري ج9 ص 39 كما أخرجه أبو داود، وصححه ابن حبان، والحاكم، والمصنف للصنعاني ج2 ص92 ومجمع الزوائد ج2 ص109 أو قال: أخرجه البزار بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(1) الآية 67 من سورة المائدة.

مناسبات أخرى.

فإن كان يقرأ البسملة قبلها، فلماذا لم يجعلوها سورة مستقلة، وإن كان لا يقرأ البسملة، فإنه يكون قد خالف ما كان يأمر الناس به من البدء بالبسملة في كل أمر، فإن كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**، فهو أبتر[1].

على أن علينا أن نذكر القارئ: بأن السياسة كانت تقضي بمضادة أمير المؤمنين «عليه السلام» في كل ما يقول، وما يفعل، وقد ذكر الرازي وغيره أن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان يبالغ في الجهر بالتسمية في صلاته، فلما وصلت الدولة إلى بني أمية، بالغوا في المنع من الجهر، سعياً في إبطال آثار علي «عليه السلام»[2].

وربما يستشهد للوحدة بين سورتي الضحى وألم نشرح، بالإنسجام التام بين السورتين، وكأنهما تتحدثان عن موضوع واحد، فقد تحدثت سورة الضحى عن النعم التي أنعم الله تعالى بها على نبيه، وهي نعم: الإيواء، والهداية، والإغناء.. وتحدث في سورة ألم نشرح

---

(1) راجع: التفسير المنسوب للعسكري «عليه السلام» ص25 وبحار الأنوار ج89 ص242 وج73 ص305 وتفسير البرهان ج1 ص46 والتفسير الكبير للرازي ج1 ص213 وجامع الأخبار والآثار ج2 ص66 عنه.

(2) تفسير الرازي ج1 ص206 وغرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج1 ص79.

عن ثلاث نعمٍ أيضاً، وهنَّ نعم معنوية تتلخص في: نعمة شرح صدر نبيه، ووضع وزره عنه، ورفع ذكره «صلى الله عليه وآله». وسيأتي الحديث عن هذا إن شاء الله تعالى..

سبب نزول سورة ألم نشرح:

وقد ذكروا في سبب نزول سورة ألم نشرح أباطيل وأضاليل، لا يمكن القبول بها، ولا السكوت عنها، لأنها تسيء إلى قدسية رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإلى الدين كله، فقد ذكروا ما يلي:

حديث شق الصدر:

عن إبراهيم بن طهمان: سألت سعداً عن قوله: **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)**، فحدثني به عن قتادة، عن أنس، قال: شق بطنه من عند صدره إلى أسفل بطنه، فاستخرج من (لعل الصحيح: منه) قلبه، فغسل في طست من ذهب، ثم ملئ إيماناً وحكمة، ثم أعيد مكانه[1].

وقال الرازي: في شرح الصدر قولان:

الأول: ما روي من أن جبريل «عليه السلام» أتاه، وشق صدره، وأخرج قلبه، وغسله وأنقاه، من المعاصي، ثم ملأه علماً وإيماناً، ووضعه في صدره[2].

---

(1) الدر المنثور ج8 ص547 و 548 عن دلائل النبوة للبيهقي.

(2) تفسير الرازي ج32 ص2 وراجع: أنوار التنزيل ج2 ص565.

وقد ذكر ابن كثير، والسيوطي، وغيرهما حديث شق الصدر، بتفاصيله، وأن ذلك قد حصل، وهو «صلى الله عليه وآله» ابن عشر سنين وأشهر، أو ابن عشرين سنة، وأن الملائكة أخرجوا الغل والحسد من صدره الشريف، وأنه شيء على هيئة العلقة..

وفي صحيح مسلم: أن هذه العلقة هي حظ الشيطان منه «صلى الله عليه وآله»، وأن أنساً قال: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره(1).

وقيل: قد تكرر شق صدره «صلى الله عليه وآله» خمس مرات(2).

ونقول:

قد ناقشنا هذا الحديث في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وأثبتنا أنه مكذوب، فراجع ذلك الكتاب، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بضعة نقاط، هي التالية:

1 - هل صحيح أن قلب رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان

---

(1) راجع تفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ) ج8 ص3804 و 3805 ومسند أحمد ج5 ص139 وراجع: صحيح مسلم ج1 ص101 و 102 والسيرة النبوية لابن هشام ج1 ص174 و 175 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص10 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص227 - 233 والدر المنثور ج8 ص548.

(2) راجع: أضواء على السنة المحمدية ص187.

يحوي الغل والحسد، أو أن فيه علقة هي حظ الشيطان منه؟!

2 ـ ما معنى وصف الله تعالى أنبياءه بأنهم مخلَصين ـ بفتح اللام ـ وقد جاء في القرآن على لسان إبليس: **(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)**[1].

وقال تعالى عن يوسف «عليه السلام»: **(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)**[2].

وقال تعالى عن موسى: **(إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)**[3].

3 ـ وألم يكن أعظم وأفضل وأكرم الرسل واحداً من عباد الله، وقد قال تعالى لإبليس: **(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)**؟![4].

4 ـ ألم يكن «صلى الله عليه وآله» من المؤمنين المتوكلين الذين قال تعالى فيهم: **(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)**؟![5].

5 ـ هل صحيح أن مصدر الشر هو غدة، أو علقة في القلب، يمكن التخلص منها ومن الشر بعملية جراحية؟!

---

(1) الآيتان 82 و 83 من سورة ص، والآية 40 من سورة الحجر.

(2) الآية 24 من سورة يوسف.

(3) الآية 51 من سورة مريم.

(4) الآية 65 من سورة الإسراء، والآية 42 من سورة الحجر.

(5) الآية 99 من سورة النحل.

6 - هل هذا يعني أن بإمكان كل أحد أن يستأصل الشر من نفسه بواسطة عملية جراحية، ليصير بعدها ورعاً تقياً، معصوماً عن المعاصي؟!

أم أن هذه العلقة خاصة بالأنبياء، أو بنبينا محمد «صلى الله عليه وآله»؟!

ولماذا اختصه، أو اختصهم الله تعالى بها؟!

7 - وهل يمكن أن يقال: إن الملائكة لم يكونوا قد عرفوا علم الطب، ولا تعلموا إجراء العمليات الجراحية، فبقي أثر المخيط ظاهراً في صدره الشريف، وكان أنس لا يزال يراه؟!

8 - لماذا تكررت هذه العملية مرات كثيرة، وذلك حين كان عمر النبي «صلى الله عليه وآله» ثلاث سنوات، أو ثمان، أو عشر سنوات وأشهراً، أو عشرين سنة أو.. أو إلخ..؟!

9 - هل استخراج هذه العلقة ميسور للأطباء من البشر، أو هو خاص بالملائكة؟!

10- وإذا كان ذلك خاصاً بالملائكة، فهل يجوز لنا أن نطرح الأسئلة على سبيل التندر، وتلطيف الأجواء.

ألف: فنسأل عن الوقت الذي سوف يفتح فيه الملائكة عيادات، أو غرف عمليات على وجه هذا الكوكب (الأرض)؟!

وكم سوف تكون نفقات إجراء هذه العمليات؟!

ب: ولم نسأل بعد عن نوع الأجر الذي سوف يتقاضاه الملائكة،

هل هو الدينار، أو الدرهم، أو الدولار، أو اليورو؟! أم أن من المحتمل أن تكون مجانية؟!

ج: وإذ لم تكن مجانية، فهل لنا أن نتوقع ظهور مؤسسات للضمان الصحي بين البشر، وبين الملائكة؟!

د: وهل إذا استؤصلت هذه العلقة تعود للنمو من جديد لتحتاج إلى عملية ثانية كل فترة؟!

هـ: ولماذا لا يجرون على هذه العلقة اختبارات، فلعلها من الغدد السرطانية، التي لا تكاد تتخلص منها، حتى تفاجئك بالظهور من جديد؟!

وليست هي من قبيل الختان للمولود الذي يكفي إجراؤه مرة واحدة في العمر كله.. ولكن تحتاج هذه العلقة إلى العملية مرات كثيرة، حسبما تضمنته روايات شق صدر رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!

11 - ولست أدري هل تعمَّد جبرئيل إبقاء أثر المخيط في صدر الرسول؟! أم لم يكن ماهراً في عملياته الجراحية؟! ولماذا لا يجري له عملية تجميل وإزالة آثار العملية؟!

12 - لماذا اختص أنس برؤية آثار المخيط في صدر الرسول، ولم ينقل أحد سواه أنه رأى أثر المخيط في صدره الشريف.. حتى من قبل زوجاته الكريمات «صلى الله عليه وآله»؟!

13 - ولست أدري لماذا كان النبي «صلى الله عليه وآله» يكشف

صدره الشريف أمام أنس دون سواه!! وهو الذي كان من أشد الناس حياءً، حتى من العذراء في خدرها.

14 - وألا تؤدي بنا هذه الرواية إلى القول بالجبر، وأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان مجبراً على عمل الخير، والابتعاد عن الغل والحسد، والشر والمعاصي؟! فلماذا يثاب إذن؟! وما ذنبنا نحن حتى نبقى تحت وطأة التهديد بالعذاب والعقاب؟!

15 - واللافت هنا: ما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله»، من أنه قال: «ما من أحد من الناس إلا وقد أخطأ، أو همَّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا..»[1].

فلماذا اختص يحيى «عليه السلام» بهذه الفضيلة دون نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله»، ودون موسى وعيسى، وإبراهيم ونوح «عليهم السلام» مثلاً؟! ولماذا انحصر به هذا الأمر؟!

16 - إننا نجد ما يضاهي هذا المعنى بالنسبة لعيسى أيضاً، فهناك نص ينسبونه أيضاً إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: «كل

---

(1) مسند أحمد ج1 ص301 و 320 و 254 و 292 و 295 و 301 و 320 والسنن الكبرى للبيهقي ج10 ص186 ومجمع الزوائد ج8 ص209 والمصنف لابن أبي شيبة ج7 ص468 ومسند أبي يعلى ج4 ص418 والمعجم الكبير للطبراني ج12 ص167 وكنز العمال ج11 ص521 والمصنف للصنعاني ج11 ص184.

بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد، غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب»[1].

وفي رواية أخرى: «ما من مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها»[2].

فأي حديث نصدق يا ترى؟! أنصدق الحديث الذي يحصر الأمر بيحيى؟! أم الحديث الذي يحصره بعيسى؟! أم الحديث الذي يحصره بمريم وابنها؟! وكيف يصح الحصر في هذه الموارد المختلفة؟!

17 - وقد استدل المسيحيون على من يروي هذا الحديث الأخير، ويصدقه بأنه يدل على ارتفاع المسيح عن طبقة البشر، ويؤكد لاهوته الممجد على حد قولهم!![3].

---

(1) صحيح البخاري (ط سنة 1309هـ) ج2 ص143 و (ط دار الفكر سنة 1401هـ ق) ج4 ص94 ومسند أحمد ج2 ص523 والسنن الكبرى للبيهقي ج6 ص257 وفتح الباري ج6 ص338 وعمدة القاري ج15 ص176 والجامع الصغير ج2 ص278 وكنز العمال ج11 ص500.

(2) صحيح البخاري (ط دار الفكر سنة 1401هـ ق) ج4 ص94 ومسند أحمد ج2 ص274 و 275 ومسند الشاميين ج4 ص167 والجامع الصغير ج2 ص510 وكنز العمال ج11 ص501. ولهذا الحديث ألفاظ أخرى فلتراجع في مظانها.

(3) أضواء على السنة المحمدية ص186 عن كتاب: المسيحية في الإسلام (ط3) ص127 تأليف إبراهيم لوقا.

18 - هذا كله مع غض النظر عن تناقض روايات شق الصدر فيما بينها، وعن مؤاخذات أخرى حول خصوصيات وردت فيها، مثل:

ألف: زعمهم أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد استرضع في بني سعد لينشأ أفصح لساناً، وأصح بدناً، وأقوى جناناً..

فإننا لا نصدق هذه التأويلات الباردة، لأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان من صميم قريش، ومن بني هاشم بالذات، وهم أفصح العرب على الإطلاق، وأصح الناس أبداناً، وأقواهم جناناً أيضاً.. فلماذا هذا الانتقاص المبطن منهم، ومن رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ب: يضاف إلى ذلك: أن أم النبي «صلى الله عليه وآله» إذا كانت على قيد الحياة، فلماذا لا تكون هي مرضعة ابنها؟! ولماذا يحتاج إلى بني سعد أو غيرهم؟!

ونحن نرى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وسائر الأئمة الطاهرين «عليهم السلام» ما زالوا يحثون النساء على إرضاع أولادهن بأنفسهن.

إلا إذا كانت أمه نفسها قد رافقته إلى تلك البادية، لتعيش فيها معه برهة من الزمن بعد ولادته «صلى الله عليه وآله»، وتكون هي المرضعة له، ربما لأنها لا تريد له أن يكون في محيط زاخر بالمعاصي، وبالإنحرافات والموبقات. وربما تكون قد خافت عليه من

الحاقدين والحاسدين، أو لغير ذلك من أسباب.

ج: يضاف إلى ما تقدم: أن زعم الروايات: أن سبب إرجاعه إلى أمه من بني سعد هو حديث شق الصدر، يتنافى مع قولهم: إنه أرجع إلى مكة بعد بلوغه سن الخامسة، وحديث شق الصدر يصرح بأن ذلك كان في الثالثة من عمره الشريف «صلى الله عليه وآله»..

د: وهناك من يذكر أن سبب إرجاعه «صلى الله عليه وآله» إلى مكة ليس هو حادثة شق الصدر، بل لأن نفراً من الحبشة نصارى، رأوه مع مرضعته، فسألوا عنه، وقلبوه، وقالوا لها: لنأخذن هذا الغلام، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا الخ..

فتوجست مرضعته من أن يكونوا يبيتون له نية خبيثة، كالقتل أو الاختطاف، أو ما إلى ذلك، فبادرت إلى إرجاعه إلى أهله «صلى الله عليه وآله»[1].

هـ: إنهم يذكرون في حديث شق الصدر: أن أطفال الحي هم الذين شاهدوا شق الصدر، فأخبروا أهله بما رأوا..

وهذا يشير إلى أمرين:

أولهما: أن هذا الشق كان حقيقياً ومادياً يراه الناس العاديون، ولم

---

(1) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج1 ص177 وتاريخ الأمم والملوك ج1 ص575 والإكتفاء للكلاعي ج1 ص114 ونهاية الأرب للنويري ج16 ص86.

يكن تمثيلياً كما ربما قاله بعض العلماء[1]، ورؤية الأطفال له، وإخبارهم به يشهد على ذلك.

والقول بأن ذلك كان على سبيل التمثل لهم جميعاً يبقى مجرد احتمال، لا شاهد له، بل ظاهر النصوص يشهد بخلافه.

ثانيهما: إذا كان هذا الأمر قد حصل على نحو الحقيقة، فإن الأسئلة التي أسلفناها تصبح مشروعة، بل تصبح أشد وقعاً، وأعظم بركةً ونفعاً.

و: ذكرنا في كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»: أن لهذه الرواية جذوراً جاهلية، حيث تذكر رواياتهم أن ما يشبه ذلك قد حصل لبعض الناس، وهو أمية بن أبي الصلت، وأنه كان نائماً، فجاء طائران، فوقع أحدهما على باب البيت؛ ودخل الآخر، فشقَّ عن قلب أمية ثم رده، فقال له الطائر الآخر: أوَعَى؟!

قال: نعم.

قال: زكا؟!

قال: أبى.

وعلى حسب رواية أخرى: أنه دخل على أخته، فنام على سرير في ناحية البيت، قال: فانشق جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره، ووقف الآخر مكانه، فشق

---

(1) تفسير الميزان ج20 ص362.

الواقع على صدره، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوَعَى؟!

قال: وَعَى.

قال: أقَبِل؟!

قال: أبى.

قال: فرُدّ قلبه في موضعه إلخ..

ثم تذكر الرواية تكرر الشق له أربع مرات[1].

(1) راجع: الأغاني ج3 ص188 و 189 و 190.

الفصل الثاني:

أَلَـمْ نَشْـرَحْ لَكَ صَـدْرَكَ..

بداية:

لقد بدأت هذه السورة بعد البسملة بسؤال الله تعالى يخاطب به الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله»، فيقول:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)؟!

وهذه الآية تتضمن دلالات وإشارات كثيرة، لا ندَّعي لأنفسنا، ولا نظن أحداً يستطيع ادِّعاء الإحاطة بها، وما يمكن أن يذكر لها من الدلالات والإشارات يبقى مجرد احتمالات لا تتجاوز الظواهر القريبة، وتبقى الخرائد والفرائد من المعاني مخزونة عند أهلها، وهم الأنبياء وأوصياؤهم، فلا يمكن التماس شيء منها لدى غيرهم «صلوات الله وسلامه عليهم».

ولا ندَّعي أن ما نقوله فيها أكثر من تفسير لمعاني الألفاظ وفق ما وجدناه في كتب اللغة، وهو قاصر حتى عن إفادة ظواهر الألفاظ، فنحن نعرض هنا بعض ذلك، فنقول:

الإستفهام إنكاري أم تقريري؟!:

بدأت هذه الآية المباركة باستفهام، لا نشك في أنه ليس استفهاماً إنكارياً، لأن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لم يفعل، ولا يمكن أن يخطر في باله أن يفعل شيئاً يمكن أن ينكر الله تعالى عليه فعله. لأنه

مسدد ومؤيد، ومعصوم عن الذنب، والخطأ وعن النسيان، والسهو، وعن كل نقص أو عيب أو رجسٍ، صغر أو كبر..

إلا إذا فرض أن يكون تعالى يجري الكلام بصورة الإنكار، وربما مع تهديد ووعيد لكي يفهم الآخرين أمراً بعينه، وقد يكون هذا الأمر هو الزجر عن بعض الأمور، وأنها حتى لو فرض ـ محالاً ـ صدورها من أحب الخلق إلى الله، فلن يكون في منأى عن العقوبة الصادمة في أقصى مداها..

كما أن قوله تعالى لنبيه: **(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)**[1]، وقوله: **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)**[2]، ونحو ذلك من الآيات التي هي من أبلغ الزواجر الإلهية للناس، لإفهامهم أن هذا الأمر ليس من موارد العفو والتسامح.. وما إلى ذلك.

وقد يكون الاستفهام تقريرياً ـ كما هو الحال هنا ـ يراد منه أن يظهر الحجة على لسان نبيه، ليقطع بها العذر، وقد يكون لأجل إظهار عظمة ومقام رسول الله، ولغير ذلك من أغراض.

فليس الاستفهام هنا لأجل أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان ينكر ما يسأله الله تعالى عنه، ولا لأجل أن يظهر للناس أنه

---

(1) الآية 65 من سورة الزمر.
(2) الآيات 44 ـ 46 من سورة الحاقة.

«صلى الله عليه وآله» لم يكن مكترثاً بتلك النعم، أو لم يؤد حق شكرها.

ومن موارد كون التقرير لأجل إظهار الحجة قوله تعالى لعيسى بن مريم: **(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[1].

ومن موارد إظهار فضل وكرامة وعظمة الرسول سورة ألم نشرح، وسيأتي إن شاء الله بعد تفسير «الشرح» الوارد في الآية بيان بعض ما ربما يهدف إليه هذا الاستفهام التقريري، فانتظر..

(نَشْرَحْ):

فُسِّر الشرح بتفسيرات، فقيل: هو التوسعة، ويقال: شرح صدره بالشيء، وللشيء: سره به، وطيب به نفسه، كأنه أوسع من صدره، وفتح له تنفسه.

(1) الآية 116 و 117 من سورة المائدة.

والإنشراح: طيب النفس وسرورها[1]، وتشريح الأضاحي، وهو أن تجعل لحومها رقائق، وتنشر.

فظهر بذلك: أن شرح الصدر، يحمل معه إلماحات لأمور عديدة، منها:

1 - التوسعة والقدرة على التحمل.

2 - السرور والابتهاج.

3 - طيب النفس بالشيء.

4 - التمكين من استيعاب المنافع بصورة مريحة.

5 - الجمع لشتات الأمور إليه، لكي يتصرف فيها بحكمة ودراية.

6 - الأنس والرضا بالأمر.

7 - وفي الشرح إشارة إلى الحصول على قدرة وصلابة، ورسوخ وثبات.

بماذا، ولأي شيء؟!:

وبعدما تقدم نقول:

هذه الآيات تشير إلى أن أمراً ما هو الذي دعا إلى توسعة وشرح صدر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو شيء تطيب به النفس، ويمكّن من استجلاب المنافع، وبه يكون الأنس والرضا، ويمنح

(1) راجع أقرب الموارد، مادة شرح.

السرور والبهجة..

واذا رجعنا إلى الآيات الكريمة، فنرى أنها قد أطلقت الكلام، ولم تحدد لنا هذا الشيء، ولعل سبب عدم التحديد هو إفهام معنى العموم والشمول في توسعة الصدر وشرحه، ليشمل جميع مقاصد النبي، وليستوعب كل الأمور التي تهم من شرح الله تعالى صدره، وخاطبه بهذا الخطاب، الذي هو خاتم الأنبياء، وحافظ جهودهم، فإن ما يبهجه، ويسره، وتطيب له نفسه، هو أن يتمكن من تحقيق غاياته العظمى على مستوى الوجود الإنساني في كل امتداداته. والتي كان «صلى الله عليه وآله» على اطلاع تام بما فيها من آلام ومتاعب، وتحديات ومصاعب. وفيها قتل الأحبة، وأغلى النخب الإنسانية والإيمانية، وصفوة الخلق بدءاً من رسول الله «صلى الله عليه وآله» مروراً بابنته سيدة نساء العالمين، ثم بقتل أخيه علي، والحسن والحسين، وسائر الأئمة الطاهرين «عليهم السلام»، فضلاً عن الكوارث والرزايا والمصائب والبلايا التي تحل بكل من سار على نهجهم، على مدى العصور والدهور..

فضلاً عن الاتهامات الباطلة حتى لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، والتحريف والتزييف للحقائق، والعدوان على أقدس المقدسات، والتلاعب بالدين في عقائده وشرائعه، وكل ما تناله أيديهم.

بالإضافة إلى سائر أنواع الأذى الروحي، والافتراءات والإشاعات، وجهل الجاهلين، وكيد الخائنين، واستهزاء المستهزئين.

إن ذلك كله يدل على أن من الطبيعي أن يضيق الصدر أمام هذه الدواهي العظمى، بسبب الخشية على ضياع الجهود، وبوار التضحيات، وعدم بلوغ الغايات. قال تعالى: **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)**[1]، ويقول: **(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)**[2].

إن شدة الحب للحق، ولأهله، والحرص على بقائه ونقائه يجعل أي عدوان عليه أمراً بالغ الأذى للروح وللوجدان، وللنفس الإنسانية الطاهرة، فكيف إذا كان الحق والدين الذي يحاربه هؤلاء يريد لهم أن يكونوا هم أول المستفيدين منه حتى لو لم يدخلوا فيه؟! كما أن المقيمين على هذا الدين لا يبغون إلا الخير والصلاح حتى لهؤلاء الأشرار، حتى وقد قال تعالى لنبيه ـ وهو يرى شدة تألمه على مصير محاربيه لو استمروا على باطلهم ـ: **(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)**[3].

وقال: **(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**[4]. وقال: **(فَلَعَلَّكَ**

---

(1) الآية 97 من سورة الحجر..
(2) الآيتان 33 و 34 من سورة الأنعام.
(3) الآية 8 من سورة فاطر.
(4) الآية 3 من سورة الشعراء.

بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)[1].

وهذه هي بعض ثمرات شرح الصدر الذي حبا الله تعالى به نبيه الأعظم، الذي أصبح كل همه ليس أن يدفع الأذى عن نفسه، ولا أن يرى تألم أهل الحق، وظلم أهل الباطل لهم، بل أن لا يبتلي أهل الباطل بآثار باطلهم.

شرح الصدر من أعظم المنح الربانية:

فظهر بذلك: أن شرح الصدر هذا كان من جلائل العطايا، وأعظم المنح والهدايا لرسول الله «صلى الله عليه وآله»..

فإن من المفهوم جداً للناس أن يمنح الله تعالى نبيه نعمة الصبر على المحن مهما عظمت. ولكن هذا الصبر لا يمكن أن يقاس بنعمة شرح الصدر، فإنها تجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتلذذ بهذه المرارات. وبدل أن يكون مقهوراً يكون مسروراً، وبدل أن يكون ساخطاً يكون راضياً، وبدل أن يضيق صدره بها، يتسع صدره لها، ولكنه في جميع الأحوال كان يتجرع مرارة الخوف على الدين والحق.

وهذا كله يجعلنا نفهم بعمق، حين تلقى علي «عليه السلام» ضربة ابن ملجم القاتلة على رأسه، لماذا قال: فزت ورب الكعبة[2].

---

(1) الآية 6 من سورة الكهف.

(2) راجع: خصائص الأئمة ص63 وشرح الأخبار ج2 ص442 والمسترشد

ونتفهم أيضاً قول الإمام الحسين «عليه السلام» لولده: كيف طعم الموت عندك يا بني؟!

فيأتيه الجواب: أحلى من العسل(1).

ولا نعجب إذا سمعنا الإمام الحسين «عليه السلام» يقول:

رضى الله رضانا أهل البيت(2).

ص4 ومناقب آل أبي طالب ج1 ص385 وج3 ص95 والطرائف لابن طاووس ص519 وحلية الأبرار ج2 ص63 و 391 ومدينة المعاجز ج3 ص40 وبحار الأنوار ج41 ص2 وج42 ص239 وشجرة طوبى ج1 ص64 ونهج السعادة ج7 ص111 و 124 و 125 والإستيعاب (ط دار الجيل) ج3 ص1125 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج9 ص207 وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص561 وأسد الغابة ج4 ص38 وأنساب الأشراف ص488 و 499 والجوهرة في نسب الإمام علي وآله ص114 والوافي بالوفيات ج18 ص173 والإمامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج1 ص138 و (تحقيق الشيري) ج1 ص180 والدر النظيم ص271 وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج2 ص96 و 97 وقصص الأنبياء للجزائري ص396 وينابيع المودة ج1 ص203 وج2 ص32 وج3 ص145.

(1) راجع: وسيلة الدارين في أنصار الحسين ص253 ومدينة المعاجز ج4 ص215 و 228 والهداية الكبرى ص204 وراجع: نفس المهموم ص208 عن الملهوف ص82 و83.

(2) راجع: بحار الأنوار ج44 ص367 واللهوف لابن طاووس ص38 وكشف الغمة ج2 ص239 ومعارج الوصول ص94 ومثير الأحزان ص29

إن هذه الدرجة من الرقي والسمو الروحي، وهذا الوعي الرصين، والتفاعل الصادق والعميق مع قضايا الحق والدين، لا ينالها إلا الأوحدي من الناس ممن امتحن الله قلوبهم للتقوى.

بل ليس المهم أن تعرف الحق، بل المهم أن تتفاعل معه، وتعيشه.

والأهم من ذلك: أن تكون قادراً على التضحية بالغالى والنفيس من أجله، وتكابد أعظم المصائب والبلايا في سبيله.

والأهم من هذا أو ذاك: أن تلتذ بهذه التضحيات، وتأنس وتسر بها حتى في مكابدتك لها..

لماذا لم يقل: ألم أشرح؟!:

وقد يتساءل المرء عن سبب إيراد الكلام في بداية هذه السورة المباركة بصيغة المتكلم ومعه غيره، فقال: **(أَلَمْ نَشْرَحْ)**، ولم يقل: «ألم أشرح».

ويمكن أن يجاب: بأن قوله تعالى: «**أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**»، لا يقطع دابر توهم أن تكون فائدة وعائدة هذا الشرح لغير رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإن كان من المحتمل أن يعود إليه هو

ولواعج الأشجان ص239 و 70 ونزهة الناظر وتنبيه الخاطر ص86 والمجالس الفاخرة للسيد شرف الدين ص207 عن مقتل الخوارزمي ج1 ص186.

«صلى الله عليه وآله» بعض النفع من ذلك.

فيكون الهدف هو جعله «صلى الله عليه وآله» قادراً على حمل أمر عظيم لم يكن يطيقه لولا هذا الشرح، فالشرح كان فعلاً إلهياً إعجازياً وجبرياً، قد أجري على الرسول للوصول إلى أمر لا ناقة له فيه ولا جمل، ثم انتهى مفعول هذا الإعجاز، أو قد ينتهي حين يظهر أنه لم يعد هناك حاجة إليه..

والذي يقطع دابر هذا التوهم هو أن يورد الكلام بصيغة المتكلم ومعه غيره، فإنه تعالى يكون قد أفاد معنى الكرامة الإلهية لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بشرح صدره هذا، حيث اصبح محلاً لصناعة الذات النبوية بالوسائل والسنن. ووفق المسارات الطبيعية المرضيَّة لله تعالى..

فالتصرف الإلهي في صناعة الشخصية النبوية معناه أن يمنحه طاقات وإمكانات هائلة، وكمالات وصفات فاضلة، يسعى إليها كل ذي عقل راجح، ورأي حصيف، باعتماد الطرائق التي رسمها الله تعالى سبلاً إليها، فكان «صلى الله عليه وآله» يستعين بكل وسائل المعرفة والوعي والعلم، والخضوع والبخوع، والعبادة والابتهال، والتقرب إلى الله تعالى لكي ينيله إياها.

فليست هي مجرد تصرف إعجازي من خارج دائرة الاختيار.

(لَكَ):

ويتأكد هذا المعنى المشار إليه آنفاً من خلال كلمة **(لَكَ)**، الدالة

على أن شرح الصدر هو تكريم وتفضل، يراد به إيصال رسول الله إلى غاياته، وتحقيق أغلى أمنياته، التي يحبها «صلى الله عليه وآله» ويسعى إليها، لأنها من كمالاته، ومن دلائل عبوديته لله، وحبه لله تعالى، وسعيه لنيل درجات القرب والزلفى لديه..

فبسبب سعي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وما بذله من جهد، استحق هذا التفضل والإكرام، وهذا التبجيل والإعظام.

إنه «صلى الله عليه وآله» هو الذي نال مقام شرح الصدر، وسعى من خلال طاعاته وعباداته، ويصبح ليس فقط قادراً على تحمل الآلام في سبيل الله، بل أصبح يسعد، ويلتذ ويسرّ ويفرح بهذه الآلام، حتى صارت من موجبات أنسه. وصار يرى أنه ليس مغبوناً فيها، بل هو الرابح. وأصبح طيب النفس بما يراه غيره خسارة، وضياعاً..

فهو يرى نفسه مسروراً بهذه الكمالات التي ينالها، فشرح الصدر برسوخ قدمه بالإيمان، واستيعاب كل هذه الشدائد التي تواجهه في سبيل الله.

وهذا درس بالغ الأثر، يجب على كل الناس أن يتعلموه من نبيهم، فهو قدوتهم وأسوتهم.. فشرح الصدر إعداد إلهي لرسول الله «صلى الله عليه وآله» ليمارس قيادة كل ما في هذا الكون، وفق الخطة الإلهية، بما في ذلك بناء الشخصية الإنسانية وفق ما رسمه الله تعالى في طريقة سياسة العباد، وتزكيتهم، وتصفية نفوسهم من كل ما علق

بها من أدران وشوائب، وتهذيبها، ونزع جميع أنواع الغل والحقد، والسوء..

وبلورة معنى الطهر والصفاء، والخلوص، والنقاء.

ثم شحنها بكل معاني الخير والبر، والتقوى، وبأشرف العلوم وأسماها، وأبهى المعارف وأسناها، وبكل مزية وفضيلة، وصفة وسمة جميلة، وبالخصائص الكريمة والجليلة.

ويعلمهم الكتاب في أحكامه وشرائعه، والحكمة التي تنسجم مع حقائق التكوين وأسراره، وتضمن سلامة مساره، لنيل بركات كدحه إلى ربه، تفيؤ ظلال أنواره، ويوصلهم إلى أعلى درجات القرب والزلفى عند الله تعالى، ويهديهم ويرعاهم، وهم في حالة رقي وتكامل متواصل في الدنيا والآخرة.

وإذا كان «صلى الله عليه وآله» سوف يصطدم بكل أبالسة الجن والإنس، ويواجه كيد الخائنين، وطغيان الجبارين، ومكر الماكرين، وكل شياطين الأهواء والشهوات، وطواغيت وأئمة الضلال وهي محتشدة أمامه على باب قلب كل بشر، تنفث نيران الفتنة لكي تمنع أنوار الإيمان من أن تضيء شغافه، ولم تزل ولا تزال تكيد له المكائد، وتنشر أمامه العراقيل والمصائد، وهي ترصد أية غفلة أو تهاون أو ضعف، لتبادر إلى الهجوم الساحق، لكي تعيد الأمور إلى نقطة الصفر إن لم تجعلها أكثر، وأعظم مؤونة.

وذلك كله يعطينا صورة عن حجم الحاجة إلى سعة الصدر، فإنها

آلة الرياسة الواعية والمسؤولة، التي تحقق المعجزات، وتنجز أشرف وأعظم المهمات الإلهية في هذا العالم الفسيح.

الحكمة تحتاج إلى تعليم إلهي:

والحكمة التي أشرنا إليها، ليست أمراً عادياً، يمكن للناس أن ينالوه بعقولهم، بل هي تحتاج إلى دلالة من الله تعالى، وتعليم من رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ولذا قال تعالى: **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)**[1].

فإننا إذا فسرنا الحكمة بأنها وضع الشيء في موضعه، فذلك يعني أن لا يتمكن من ذلك إلا من يعلم أسرار الخلق، ودقائق الحقائق فيه، وكل سنن التكوين، ولا أحد يستطيع أن يدعي ذلك لنفسه. كيف وقد قال تعالى: **(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)**[2]. وقال تعالى: **(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)**[3].

بل إن الملائكة قالوا: **(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)**[4]. وفي القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة.

---

(1) الآية 2 من سورة الجمعة.

(2) الآية 7 من سورة الروم.

(3) الآية 255 من سورة البقرة.

(4) الآية 32 من سورة البقرة.

ولأجل ذلك نجد: أن النبي الكريم والأئمة الطاهرين « صلوات الله وسلامه عليه وعليهم»، لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة في حياة البشر حتى البسمة والنظرة، إلا وقد بينوا كيفيات وحالات التعاطي معها في أدق التفاصيل. حتى حركة الماشي، وحالاته، وسرعته وبطئه، ومواضع نظره وما إلى ذلك، ووضعوا ضوابط حتى للتفوه بالحروف والكلمات لمن أراد الكلام. وحددوا حالات المتكلم في نبرات صوته علواً وانخفاضاً وفي لفتاته ولحظاته، ومقدار كلامه، وخصوصيات كلماته، وإشاراته، وكل ما يخطر على البال في أحواله وأطواره..

وتعرض حتى لخلجات نفوس الناس، ووضع ضوابط لتفكيرهم في مختلف الحالات والشؤون والموضوعات.

وكل ما يمكن أن يخطر على قلب بشر على امتداد الحياة في هذه الدنيا، وإلى أن تقوم الساعة.

وذلك يعني أن شرح صدر رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يقصد به ما يجعله قادراً على مواجهة أذى المشركين وحسب.. بل هو بحجم الكون والحياة والجن والإنس، والملائكة، والدنيا والآخرة.

عودة إلى الإستفهام التقريري:

وقد رأينا أن هذه الآيات قد خاطبت رسول الله «صلى الله عليه وآله» بصيغة الاستفهام التقريري، لا لأنه تعالى يريد جواباً من رسول الله «صلى الله عليه وآله» يسمعه الناس منه.

ولا لأنه «صلى الله عليه وآله» كان غير معني بما يقرره الله

تعالى به.

ولا لأنه كان ينكره أو يقلل من قيمته، أو ما إلى ذلك.

بل هو «صلى الله عليه وآله» معترف بهذه النعم الجليلة، باذل نفسه في مرضاة الله، شديد الخضوع له تعالى، مجهد نفسه في شكره، شديد الشعور بهذا الفضل العظيم من الرب الكريم.

بل المقصود هو التنويه بعظمة هذا الرسول، وتعريف الناس بميزاته وملكاته، وعظيم شأنه، وسامي مقامه، وأن تواضعه للناس، وهضم نفسه لا يعني أن لا يعرف الناس له هذا الفضل العظيم، والشرف الباذخ، والمقام الشامخ.

لماذا (نَشْرَحْ)؟!:

وقد يتسائل المرء عن السبب في أنه تعالى قال: **(أَلَمْ نَشْرَحْ)**، وقال: **(وَوَضَعْنَا)** بصيغة المتكلم ومعه غيره!! ولم يقل: **أَلَمْ أَشْرَحْ؟!**

ونجيب:

أولاً: بأنه تعالى حين يتكلم عن نفسه مع عباده ومخلوقاته.. فإنما يتحدث معهم ـ في الأكثر ـ من موقع العظمة، والعزة، فإن ذلك أدعى لبخوعهم له، وأبعد أثراً في انقيادهم لأوامره ونواهيه، وفي تخليهم عن كبريائهم وعنجهيتهم معه.

ثانياً: إن الناس بحسب ما يظهر من أحوالهم، ومن تعاملهم مع الأمور ينسبون الإنجازات ـ حقيقية كانت أو موهومة ـ إلى أنفسهم،

فالتاجر إذا ربح، يعد الربح ثمرة جهده، وإذا نجح السياسي في عمله، والإداري في إدارته، والزارع إذا حصل على إنتاج وافر، والصانع الموفق في صناعته، والتلميذ في درسه، والأستاذ مع تلامذته، وجميع أصناف البشر إذا حصلوا على أي نفع أو توفيق ـ بنظرهم ـ فإنهم ينسبونه إلى حسن تصرفهم، وإلى عبقريتهم، وصوابية تصرفاتهم، وصحة إدارتهم، وسلامة خططهم، وحسن قيامهم على الأمور.

وإلى ذكائهم، وجهدهم، وعقلهم ودرايتهم، ويرون أن ذلك هو ثمرة جهدهم، وأنه ملك لهم، ويصعب عليهم أن يشركوا أحداً حتى الباري عز وجل في شيءٍ من ذلك ولو بنسبة ضئيلة وهزيلة..

ولكنهم إذا فشلوا في أمورهم، فخسروا في تجارتهم، ولم تستقم أمور إدارتهم، ولم يحصلوا على الإنتاج المطلوب في زراعتهم، وصناعتهم.. وما إلى ذلك، فإنهم ينسبون ذلك كله إلى غيرهم، ويتبرؤون من صغيره وكبيره، ظاهره وباطنه، جملة وتفصيلاً. بل قد تجد الواحد منهم إذا لم يجد فرصة لاتهام أحد من الناس يبادر إلى اتهام الباري جل وعلا، ويدعي أنه سبحانه هو المسؤول عن فشله.

وهذا تعامل ظالم وغاشم، ومجاف للحقيقة، وبعيد عن الإنصاف، فإن الإنسان هو المسؤول عن تصرفاته، فإذا أساء التصرف والاختيار، ابتلي بالفشل والحرمان، وربما أوقع نفسه بالضرر والخطر.

وقد ذكر الله تعالى هذه الأحوال، فلاحظ على سبيل المثال لا

الحصر، قوله تعالى: **(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)**[1].

وقوله تعالى: **(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ)**[2].

بل إنهم قد يعتبرون حصولهم على ما يرضيهم من دواعي التبجح والإفتخار على الآخرين، بادعاء: أن الله اختصهم بهذه النعمة لكونهم مستحقين لها، ولكنهم إن حرموا أو نزل بهم ما يكرهون ولم يمكنهم توجيه الملامة إلى الله، اتهموا رسل الله بأنهم سبب حرمانهم أو بلائهم، مع أن الأنبياء لا يريدون لهم إلا الخير، وقد حكى الله حال هؤلاء الناس فقال: **(وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)**[3].

وفي جميع الأحوال نقول: إن الفساد والسوء والنقص يأتي من قبل الناس، فقد قال تعالى: **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي**

---

(1) الآية 36 من سورة الروم.

(2) الآية 131 من سورة الأعراف.

(3) الآيتان 78 و 79 من سورة النساء.

النَّاس)[1].

وقال: **(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)**[2].

والخير كل الخير يأتي من الله تعالى. فهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي ينبت الزرع، وينمي الأشجار، وبأمره وبفضله ومنِّه وكرمه تكون الحبوب والثمار، وهو الذي ينزل الغيث، ويسير الهواء، ويعطي الإنسان العقل، ويفسح له في التفكير، ويلهمه التدبير، ويمنحه البصيرة والقدرة..

تسبيب الأسباب:

وهو الذي سبَّبَ الأسباب الموصلة إلى الغايات، سخرها للإنسان، الذي استفاد منها، واعتمد عليها في تدبيره، واستعان بها على التخطيط لنظم أموره.

إذ لولا قانون السببية هذا لم يكن للإنسان أن يضع هدفاً، وأن يخطط للوصول إليه، إذ لا شيء غير هذا القانون المهيمن يضمن له الحصول عليه، وبلوغ ما يصبو إليه.

فلو كانت الأمور عشوائية، وزرع الإنسان، فلا شيء يدل على أن الزرع سوف ينبت، والشجر يثمر، والشاة سوف تلد، والضرع سوف يمتلئ باللبن، والمطر سوف ينزل.. وأن المرء سوف يبقى

---

(1) الآية 41 من سورة الروم.

(2) الآية 30 من سورة الشورى.

يفكر بصورة سليمة.. وأن اللسان سيبقى قادراً على الحركة وعلى النطق بالحروف بصورة صحيحة ومنتظمة، أو أنه سيبقى قادراً على إدارة الطعام في الفم بصورة سليمة. وما إلى ذلك.

فإذا اختل ذلك كله بسقوط قانون السببية، فالتخطيط ورسم المستقبل على أساس الاستمرار على وتيرة معينة، وبقاء هذا النظم، واستمرار الحصول على هذه الآثار سيكون سفهاً، ولا يستند إلى أساس..

فظهر أن قانون السببية هذا، من أعظم النعم، وأسناها، وأن تسيير أمور الحياة واستمرار الفيوضات الإلهية الغامرة في جميع المجالات، وفي سائر الشؤون، على هذا النظم البديع، لهو من أجل العطايا، وأسناها، وأهمها وأغلاها.

لجهد الرسول أثره أيضاً:

وبعد كل ما تقدم نقول:

لعل قوله تعالى: **(أَلَمْ نَشْرَحْ)** إشارة إلى ثمرات ما يقوم به «صلى الله عليه وآله» من ابتهال وعبادة، وعفة وزهادة، وما يقدمه من تضحيات، وما يجهد به نفسه من طاعات، وأنه قد بلغ بها أقصى الغايات، وأهلته لنيل أعز الأمنيات، وجعلته أهلاً لهذا العطاء الجليل، ولهذه المعونة الهادفة إلى تخفيف المؤونة عليه، وتقريب البعيد عنه إليه، فكان هذا الفيض المبارك الذي زاد من طاقاته، وضاعف من قدراته..

فإيراد الكلام بصيغة المتكلم الذي معه غيره ربما كان أيضاً للإلماح إلى ما بذله رسول الله «صلى الله عليه وآله» من جهد أسهم في استحقاقه شرح صدره، ووضع وزره عنه، علماً بأن نفس سعي رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا بد أن ينسب أيضاً إلى الله تعالى، لأنه كان بهداياته، وألطافه، وتوفيقاته.

وبذلك تصبح النتيجة منسجمة مع قوله تعالى: **(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)**[1].

وحتى نعمة الصبر، والوفاء، والكرم، والشمم، والعزة والإباء، والكرم، والطاعة والعبادة، والتقوى والزهادة، وكل عقل وتدبير، وتأمل وتفكير، وكل خلق رضي، وكل صفة كمال، وحسن خلق وغير ذلك.. إن ذلك كله عطاء وتفضل من الله تعالى.

فلا مجال لأن يظن أحد أنه مستغن عن الله تعالى في شيء مهما صغرأو كبر، فإذا كان هذا هو حال خير خلق الله، وهو الأكمل والأفضل، فما بالك بسواه، وهو الضعيف، والعاجز الفاقد؟!

فيكون هذا السياق البياني قد ألمح إلى حقيقة مهمة تفيدنا في معرفة واقعنا، وتفتح أعيننا على عبرة لا بد لنا من الاستفادة منها في حياتنا وفي نظرتنا، وتعاملنا مع الأمور.

---

(1) الآية 53 من سورة النحل.

لا بد من الحفاظ على السنن:

ونخلص من كل ما ذكرناه إلى لزوم التنبه إلى ضرورة التدقيق في طبيعة تعاملنا مع السنن التي لها هذا الدور الحساس والمصيري في حياتنا، فإن حساسية هذا الدور يفرض علينا أن نعرف قيمتها، وأن نضبط تعاملنا معها، فيكون تعاملاً صحيحاً وقويماً، وصادقاً وسليماً. فلا نعمل على الإساءة إلى أي منها، فضلاً عن أن نتسبب بإفساده أو بالإخلال به.

ولا نقصد بالسنن خصوص ما يرتبط بالتكوين النفسي، أو الاجتماعي، أو السياسي أو الاقتصادي، بل ما يشمل كل ما له أثر ودور في حياتنا.. فلا نسيء حتى إلى سلامة التربة، أو إلى الهواء، أو إلى الماء، وكل ما يحيط بنا على وجه الأرض، أو في باطنها، أو في جو السماء فإن الحفاظ على ذلك كله حفاظ على أنفسنا، وصيانة لمستقبلنا، ومستقبل أبنائنا، وقد روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال: «فإنكم مسؤولون عن البقاع والبهائم»[1].

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص80 وبحار الأنوار ج22 ص9 و 41 وج65 ص290 والكامل في التاريخ ج3 ص194 وأعيان الشيعة ج1 ص446 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج9 ص288 وتفسير نور الثقلين ج4 ص402 وتفسير الميزان ج17 ص142 وتاريخ الأمم والملوك ج3 ص457 والبداية والنهاية ج7 ص254.

تحول النعم المادية إلى روحية أيضاً:

وقد يكون من المفيد تذكير القارئ الكريم: بأن السياسة الإلهية في المجال التربوي تقضي بتحويل النعم المادية إلى طاقات روحية أيضاً، حيث إن كل الأعمال غير العبادية يمكن إعطاؤها صفة العبادية إذا أتي بها بقصد التقرب إلى الله، والتوصل بها إلى رضاه، ووضعها في سياق تنمية الإيمان، وتطهير النفس والوجدان، وتمتين العلاقة بالله تعالى..

فإذا توفرت النية الصادقة، وأقيمت الرابطة بين العمل المادي وبين الله تعالى تحول إلى عبادة روحية، يكتسب العامل بها الثواب، ويزيد به رصيده من الحسنات، التي سيكون بأمس الحاجة إليها في الآخرة..

كما أن هذا الأمر من شأنه أن يستنزل المزيد من التوفيقات الربانية، ويترك الكثير من الآثار على النفس، وعلى الحياة بصورة عامة..

فظهر أن شرح الصدر لا يقتصر على إعطاء القدرة على احتواء الأزمات، وتحمل المسؤوليات، بل هو يشمل تزويد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بكل القدرات والإمكانات والطاقات الروحية والأخلاقية والمعرفية، والنفسية، وبكل القدرات على التصرف في أمور الحياة، والهيمنة على النواميس والسنن وتسخيرها، والإستفادة، من السنن الأرقى لتذليل ما هو أدنى.. والتمكين من تحريكها في خدمة

الأهداف التي يسعى إليها، وإنجاز المهمات التي أوكلت إليه، حتى لو كانت هذه المهمات تدخل في نطاق التربية الروحية، والأخلاقية، وتزكية النفس والتزود بالمعارف، واكتناه أسرار الخلق والتكوين، وامتلاك قدرات غير مألوفة، كالقدرة على أن يرى الإنسان من خلفه، والإشراف على أعمال العباد، والشهادة على الخلق، والقدرة على التعامل مع سائر المخلوقات كالجن والملائكة بما يناسب حالها.

والقدرة على الوصول إلى أي مكان في أي زمان، ولو في مستوى حادثة الإسراء والمعراج، والإستفادة من وسائل غير مألوفة ولا معروفة إن احتاج إلى ذلك.

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي):

وربما يكون من المفيد تذكير القارئ الكريم ـ ونحن نتحدث عن شرح صدر الرسول «صلى الله عليه وآله» ـ بقوله تعالى لموسى «عليه السلام» في مناسبة التقاط آل فرعون له: **(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)**[1].

فإن شرح صدره «صلى الله عليه وآله» يدخل في نطاق صناعته «صلى الله عليه وآله»، ورعايته، وتيسير أموره.. وتوفير الهدايات والدلالات له، ليستفيد فيها في تنمية قدراته على اختلافها، وتنميتها، وإخضاعها للرياضات الروحية المؤثرة فيها مزيداً من الصفاء

(1) الآية 39 من سورة طه.

والنقاء، وتقوية مزايا الخير فيها وتنشئتها وفق ما يريده الله تعالى لها.

وعن علي «عليه السلام» ـ كما في نهج البلاغة[1] ـ: «ولقد قرن الله به «صلى الله عليه وآله» من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره».

ولا ينافي ذلك ما روي عنه، من أنه كان نبياً وآدم بين الماء والطين، أو بين الروح والجسد، فإن هذا الملك قد يكون هو جبرئيل، ويكون المقصود بطريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم هو الوحي الذي كان يلقيه، وما كان يأتيه به من عند الله تعالى..

وربما كان هذا الملك هو كناية عن تلك القوة التي يكشف بها الغائبات التي تحدد له منحى بعض ما يكون ذا وجهين، ولا يعرف وجهه الراهن له إلا بكشف الغائب عنه..

وربما كان هذا الملك هو نفس ذلك الذي يرفع له عمود النور

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص157 الخطبة القاصعة، ومناقب آل أبي طالب ج2 ص28 والطرائف لابن طاووس ص415 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج1 ص77 وج4 ص307 وحلية الأبرار ج2 ص30 وبحار الأنوار ج14 ص475 وج15 ص361 وج18 ص271 وج38 ص320 وسنن النبي للطباطبائي ص391 و 403 ومنهاج البراعة ج2 ص217 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج13 ص197.

الذي يرى من خلاله أعمال الخلائق، ليكون شاهداً عليهم.

وربما المقصود بالملك هو الذي يكشف له واقع الأشياء التي يرتبط بتكليفه في نفسه، فإذا كان لا بد أن يكون طعام النبي «صلى الله عليه وآله» وشرابه، وكل ما يريد أن يتعاطى معه حلالاً وطاهراً واقعاً مثلاً.. فإذا أتي بطعام من جهة ما، فإن الملك يميز له الحلال من الحرام، والطاهر عن النجس. وما إلى ذلك.

ولعل الملك كان يدل النبي ـ مثلاً ـ على الفقير الواقعي، ويميزه له عن مدعي الفقر وهو كاذب، فيصرف صدقته إلى ذلك المحتاج الواقعي دون الكاذب.

متى بدأت صناعة الله لنبيه؟!:

كما أن صناعة الله تعالى لنبيه الأعظم على عينه، وفي رعايته، وبتوفيقاته، وبهداياته قد بدأت منذ خلقه الله تعالى قبل خلق الخلق.. ولم يزل يرعاه، ويحفظه ويسدده، ويكشف له الأسرار والحقائق، ويمده بالهدايات، ويزوده بالمزيد من القدرات في كل مسيرته في هذا الوجود إلى أن صار نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، فلم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسه المدلهمات من ثيابها.

لا جبر في شرح الصدر:

فشرح الصدر لا يعني أنه كان ضيقاً ثم وسعه الله تعالى بتصرف

قهري فيه، بل هو قد يسر له الأمور، وحباه بالألطاف والهدايات والدلالات، والرعاية، ثم بعد ذلك بتطلب ذاته النبوية الشريفة لكمالاتها منذ انبثاق نوره لهداياتها.. من خلال تسبيحها وخضوعها وطلبها بلسان التكوين والفقر، والسعي نحو الله تعالى بحسب ما أودعه الله تعالى فيه..

وفي المراحل اللاحقة يكون ذلك من خلال الجهد والسعي الإرادي والجوارحي والجوانحي في امتدادات وجوده في حياته «صلى الله عليه وآله».. فمعنى شرح صدره هو كونه واسعاً من بدء خلقته، ثم في تدرجه في مسيرة الخلقة والتكامل في جميع الأدوار انشرح واتسع وأصبح مستجمعاً للطاقات، وللمزايا التي تؤهله لهذا الأمر العظيم الذي أولاه الله تعالى إياه..

وقد يشهد لهذا المعنى الذي تتضافر فيه الأسباب لصناعته على عين الله تعالى قوله تعالى: **(نَشْرَحْ)** بالنون، الدال على المشاركة، ولكنها ليست مشاركة للشريك في الخلق والألوهية أو الربوبية والعياذ بالله، فإن هذا شرك وكفر، بل المراد المشاركة لمختلف العوامل التي أودعها الله تعالى فيه، وهيأها له، وفق سنة خلقه تعالى التي أراد تعالى أن تسير الأمور وفقها ومن خلالها..

فمثلاً: إذا كان الله تعالى يريد أن ينبت الزرع، فإنه يفيض عليه الوجود بصورة تدريجية وفق السنن التي هيأها له. ككونه حباً أو غرساً، يودع في تراب، ويحرث.. ويسقى بماء، وتضربه الشمس

والهواء، ويتنامى ويكبر إلى أن ينتج ويثمر..

لماذا أشار تعالى إلى السنن؟!:

أما سؤال: لماذا أشار تعالى إلى السنن، بهذه الصورة الخفية؟!

فيقال في جوابه:

أولاً: لعل السبب في هذا الخفاء، هو إيجاد الحافز لدى الناس للتساؤل عن سبب العدول عن التكلم بصيغة المتكلم وحده إلى صيغة المتكلم ومعه غيره. فإذا عرف السبب بعد البحث والتقصي والتعب ظهر المراد وبطل العجب.

ومن المعلوم: أن الآتي بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب.

نعم، إن التجربة تشهد على أن ما يتعب الإنسان بتحصيله من فكر أو مال أو جاه، أو أي شيء آخر، فإنه يحرص عليه، ويسعى في حفظه، وعدم التفريط به.. أما ما يأتيه بلا تعب فما أسهل تخلّيه عنه، وتضييعه له، ونسيانه إياه.

ثانياً: تقدم: أنه لولا وجود السنن لما استقامت الحياة، ولكانت قد ذهبت وتلاشت بسرعة.. فإن الإنسان إذا كان لا يجد لديه ما يجعله يظن أو يشك في إمكانية حصوله على نتيجةٍ مما يريد الإقدام عليه، فإنه لا يجد في نفسه الحافز إلىه، ومباشرة الفعل فيه.

لأنه لا يبني حياته على الصدف، ولا يبادر إلى العمل في الأمور الشاقة بلا أمل يراوده، ونتيجة قريبة المنال يتوقعها..

فلماذا يجمع المواشي، والطيور ويقيم المزارع لها، إذا كان لا يثق بأنها تتلاقح وتنتج؟! ولماذا يحرث؟! ولماذا يزرع، ويضع الحب في الأرض إذا لم يثق بالإنبات؟! ولماذا يجري التجارب إذ لم يكن له أمل باكتشاف سنة تمكنه من الاستفادة منه بصورة رتيبة ومتواصلة؟!

فإن الإنسان العادي إنما يتعامل مع الأمور المحسوسة، أو القريبة من الحس. ولا يتعامل مع المجهول الذي لا سبيل لاختراقه. ولا يتخذ من الخطط العملية لعبة له يعبث بها، كما يعبث الطفل بلعبه التي يجمعها حوله.

فظهر بذلك: أنه تعالى قد جعل قانون السببية رحمة بالبشر، وهو نعمة جليلة، وعظيمة، وهي من دلائل ربوبيته وألوهيته تعالى.

الفصل الثالث:

وَوَضَـعْنَا عَنْــكَ وِزْرَكَ..

مما تقدم:

قد ظهر مما تقدم: أن الله تعالى في هذه السورة المباركة قد نوه بِنِعَم ومزايا حبا بها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا تقتصر على ما هو مادي، بل تشمل الروحي والأخلاقي، والاجتماعي، والهيمنة على السنن، وما إلى ذلك.

ولأجل ذلك لم ينحصر جعل شرح الصدر إلى جانب وضع الثقل (الذي هو الوزر)، بل أضيف إلى رفع الذكر أيضاً..

وظهر أيضاً: أن المراد بشرح الصدر معنى واسع لا يختص بحال دون حال، ولا بمجال دون مجال..

والتخفيف للثقل ليس أمراً بعيداً ولا منفصلاً عن شرح الصدر، بل هما في سياق واحد..

وأنه ليس المراد بالثقل خصوص الثقل المادي.. كما أن رفع الذكر في قوله تعالى بعد ذلك: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)** لا يقتصر على ما يكون في الدنيا، ولا يختص بمعنى الشهرة المصاحبة للإجلال والإعظام، بل الأمر أبعد من ذلك..

التوافق بين الماضي والحاضر:

ثم إن مضمون هذه الآيات، بل هذه السورة ليس بعيداً عن مضمون الآيات التي وردت على لسان موسى «عليه السلام»:

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)[1].

وبيان هذا التوافق ـ ولو بصورة مختصرة ـ كما يلي:

ثلاثة أمور أساسية:

إن هذه الآيات الثلاث قد تحدثت عن ثلاثة أمور مترابطة، ومهمة وأساسية، ولها دورها الحاسم في بناء الحياة الإنسانية.

فأولاً: تحدثت الآية الأولى **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)** عن صناعة وتكوين وبناء الذات الإنسانية، من الداخل بصورة سليمة وقويمة..

ثانياً: تحدثت الآية الثانية: **(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)** عن المسؤوليات التي هي الوزر الذي يثقل كاهل الرسول «صلى الله عليه وآله» تجاه خالقه، وتجاه نفسه، وتجاه الخلق، وتجاه محيطه، وتجاه سائر المخلوقات، حتى البقاع والبهائم وكل ما سخره الله تعالى لهذا

(1) الآيات 25 ـ 30 من سورة طه.

الإنسان ـ حسبما نصت عليه الآيات القرآنية ـ وسائر ما في هذا الكون الرحيب، حيث لا بد له «صلى الله عليه وآله» من القيام بهذا الحمل الثقيل، وإنجاز المهام الموكلة إليه، على النحو الأمثل والأفضل.

ثالثاً: ما أشير إليه بقوله تعالى: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)** إذ ليس المقصود برفع الذكر مجرد: أن يكون له «صلى الله عليه وآله» صيت ذائع، وذكر شائع.. بل المقصود به رفع ذكرٍ يعين رسول الله «صلى الله عليه وآله» على إنجاز مهماته، كما سنرى..

التوفيق والتطبيق:

وهذه العناصر الثلاثة نجدها حاضرة في طلب موسى «عليه السلام» في الآيات التي نقلناها آنفاً عنه، حين أرسله الله تعالى إلى فرعون.. فقد طلب «عليه السلام» من الله:

1 ـ أن يشرح صدره، وهذا يتوافق مع الآية الأولى في سورة ألم نشرح.

2 ـ أن ييسِّر أمره، ويجعل له وزيراً من أهله، ويحل عقدة من لسانه، لكي يفقهوا قوله..

فإن وضع الوزر والتخفيف للثقل إنما كان بولاية أخيه «عليه السلام» الذي هو وزيره، وكان بالنسبة إليه بمنزلة هارون من موسى «عليهما السلام». وهذا هو مضمون قول موسى: **(وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)**، فإن تيسير أمره كان بجعل أخيه هارون وزيراً له، لأنه كان يحتاج إليه، ليخفف عنه من مسؤوليته الثقيلة والصعبة، والشاقة والمعقدة.

3 ـ أما قوله: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، فهو يتوافق مع قول موسى «عليه السلام»:

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)، حيث إن التفرغ للعبادة وللتسبيح كما ألمحت إليه كلمة كثيراً التي تكررت في الموردين، إنما يكون بعد ظهور أمر الدعوة، وانتشارها، وقيامها، وصيرورتها ذات شوكة. وذلك بعد سقوط الطاغوت المتمثل بفرعون المدعي للربوبية، والذي كان يذل الناس ويستضعفهم..

كما أن رفع الذكر لرسول الله «صلى الله عليه وآله» إنما بدأ منذ خلق الله تعالى نوره، وهو يتواصل ويستمر إلى أن يظهر الله تعالى دينه، ويقمع الشرك على يديه، وسوف يستمر بالصعود إلى أن يمن الله تعالى على المستضعفين في الأرض ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، وذلك على يد سبطه الإمام الحجة المنتظر من آل محمد «صلى الله عليه وآله».. تماماً كما حصل للأمم السالفة، فيما يرتبط بموسى ومن آمن معه، وهلاك وبوار سعي فرعون وهامان وجنودهما قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)[1]، ثم يذكر الله تعالى قصة ولادة موسى وسائر ما جرى له مع فرعون. من حين التقاطه من اليم من قبل فرعون إلى أن أهلك الله تعالى فرعون.

لا يكفي القانون ولا الجيوش:

ومن الواضح: أن المهمة التي بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» من أجلها لا يكفي لإنجازها وضع المواد القانونية، كما لا يكفي في تطبيقها عملياً لإنشاء الجيوش، حتى لو وضع على كل رجل كتيبة كاملة، فإنها لن تستطيع أن تفرض عليه ما يريد الله ورسوله منه، لاسيما وأن هناك أحكاماً لا يرضى الكثيرون بتطبيقها، بل هم يقاومونها بكل قوة، وجبروت، مثل أحكام القصاص والعقوبات، وكثير من الأحكام المرتبطة بالمال، وبدواعي الشهوات وبغيره..

كما أن أحداً من الجبارين لا يرضى بأن يجلد في الزنا وشرب الخمر، وغير ذلك، أو أن يقتص منه، بل لا يرضى من أحد أن يخطئه في أتفه الأمور، بل قد لا يرضى بنصيحة الناصح، ولو كان من أقرب الناس إليه.

كما أن هناك أموراً وأحكاماً صارمة ترتبط بالنوايا والضمائر والقلوب، في العبادات، والاعتقادات، وعلاقات الناس ببعضهم وغير ذلك.. فإن أحداً لا يستطيع كشف مدى الالتزام بها إلا علام الغيوب،

(1) الآيات 4 ـ 6 من سورة القصص.

فكيف يمكن إخضاعها للقوانين، أو الهيمنة عليها بالعساكر والجيوش.. أو الأمر بها حين تُترك أو النهي عنها حين تفعل؟! هذا كله عدا عن أن الأوامر والنواهي والتوجيهات والدلالات تكاد لا يمكن إحصاؤها لكثرتها.

وقد كثرت الأوامر والنواهي المتعلقة بكل حركة وسكون.

بل إن ما يريده الله تعالى يحتاج إلى مشاركة البشر جميعاً في إنجازه. وقد أمر الله سبحانه كل الناس بأن يتحملوا مسؤولياتهم في نشر الدين والعلم والمعرفة، وتعليم الأحكام وتعلّمها، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهناك أمور تحتاج إلى كد وتعب، وجهد متواصل، وربما يستغرق العمر كله، وهو ما يرتبط بالتربية الروحية، وصناعة الخصائص الإنسانية، وممارسة الرقابة الذاتية، والانضباط، لفرض الاستجابة للكوابح والروادع الداخلية والخارجية بكل أشكالها.

ومن الواضح: أن المقاومة ستكون شرسة وشاملة وعامة، وستكون من كل فرد على وجه الأرض، ولن يكون الانضباط التام سهلاً حتى على أهل العلم، والتقوى والإيمان، فإنهم إنما يتعاملون مع نفوسهم البشرية، الأمارة بالسوء التي لا يمكن التصديق بعداوتها، وبأنها تأمر بالسوء، فما بالك بالتخلص منها، بل غاية ما هناك هو محاصرتها، وإسكاتها، والهيمنة عليها، حتى وجدت من الإنسان أدنى غفلة، فإنها تفلت من عقالها، لتعيث فساداً، وتهلك الحرث والنسل إن

استطاعت.

ولأجل ذلك قلنا: إن مهمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» كانت في غاية الصعوبة، لأنها لا تقتصر على فرض قانون ذي مواد محدودة يراد إلزام الناس بها ظاهرياً، وينتهي الأمر.. فإنه حتى هذا المقدار الضئيل جداً تعجز عنه أقوى الدول بكل ما لديها من جيوش، ومخابرات، وأجهزة، وهيبة، وسلطة، وقوة إلخ..

فما بالك بما يريده رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الناس، فإنه ليس فقط يحتاج إلى تربية وتعليم، وتزكية، وتلاوة آيات، وما إلى ذلك، بل يحتاج إلى معونة إلهية، وإلى جهد وجهاد كل فردٍ فرد على وجه الأرض، ليتمكن أن يتحقق مضمون هذه الآية الشريفة: **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)**[1].

وهذا كله يفتح لنا كوة ضئيلة جداً على الأفق الأرحب لقوله تعالى:

(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ).

ويأتي في الفصل التالي الحديث عن وضع الوزر بعلي «عليه السلام».

---

(1) الآية 2 من سورة الجمعة.

الفصل الرابع:

اشْــدُدْ بـــهِ أزْري..

وضع الوزر كيف، وبماذا؟!:

وعن وضع الوزر نقول:

الوزر هو الثقل، وهو هذه المسؤولية العظمى التي يحملها الرسول «صلى الله عليه وآله» على ظهره.

ووضع الوزر هو أن يزيحه عن ظهره «صلى الله عليه وآله»، ويجعله خفيفاً عليه.

وقد أشارت كلمة «نا» في قوله: **(وَوَضَعْنَا)** إلى أن وضع الوزر سيكون كالشرح، بواسطة وسائله الطبيعية. ومنها صبر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومنها جهده، وإخلاصه، ومنها أيضاً مده بالألطاف والعنايات على قاعدة: **(إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)**[1]، وعلى قاعدة: **(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)**[2].

وشد أزره قد كان بمن يعينه، ويحمل عنه ما يمكن إيكال حمله إلى الغير، ونحن لا ننكر معونة عمه أبي طالب، وحمزة، وغيرهما من عشيرته الأقربين، إلا أن المقصود بالآية هنا: شد أزره بابن عمه

---

(1) الآية 7 من سورة محمد.

(2) الآية 7 من سورة إبراهيم.

علي «عليه السلام». كما سيتضح إن شاء الله تعالى.

وضع الوزر لا يعني إزالته:

ويلاحظ: أنه تعالى لم يقل: أزلنا الثقل عنك وأبدناه وأعدمناه، بل قال: وضعناه. ربما ليشير إلى أن المطلوب هو إبقاء الثقل وحفظه، وانتهاء الأمور إلى الثمرات الخيرة، والأهداف الكبرى. فالمطلوب وضع الثقل، مع المحافظة على سلامته، وصحة مضمونه، وإنما يكون ذلك بتوزيعه بواسطة هذه المؤازرة والمعونة والمشاركة في حمله، ممن يجب أن يشارك. وتفيد في تحقيق مشاركته الهدف المطلوب في الحياة وبعد الوفاة.

(أَنْقَضَ ظَهْرَكَ):

وقد وصف الله تعالى الوزر، أو فقل: «الثقل» الذي كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يحمله بقوله: **(الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)**.

وفي بيان المراد من هذه الجملة نقول:

مرة تقول: نقض العهد: أي نكث به.

وتقول: نقض الجدار: أي فرق أجزاءه.

ولكنك إذا قلت: أنقض. أفاد أن هناك نوعاً من الاصطكاك بين الأجزاء، أو التفرق لها بنحو تصدر عنه فرقعة كفرقعة الأصابع، أو أصوات كأصوات تحطم وتكسر، كتحطم الزجاج أو العظام، ونحوها.

ويقال: أنقض ظهره أو ظهرك، إذا ناء الظهر تحت حمل ثقيل، حتى صار يسمع للظهر أصوات انتقاض أجزائه، بسبب الثقل، وصعوبة الحمل.

فظهر: أن تفسير بعضهم لكلمة أنقض بمجرد التجزئة والتفريق، كتفريق الغزل والنسيج، غير دقيق، فإن هذا هو معنى نقض، وليس معنى أنقض.

وفيما يرتبط بالآية هنا نقول:

كأن الناس كانوا يدركون مدى ثقل ما يتصدى له الرسول من خلال ما يرونه من صعوبات ومصائب، ومن تخريب لجهوده، ومن مساع حثيثة في نقض ما يبيّنه، ومن هجمات ساحقة وماحقة عليه من قبل الأبالسة والطواغيت، ومن شياطين الإنس والجن الذين كان يواجههم، فقد كان لذلك صدى بحيث تسمع أخباره من بعيد، كما يسمع صوت تحطم عظام الظهر بسبب حمل ثقلٍ.

وقد أشار «صلى الله عليه وآله» إلى حجم الذي تعرض له، فقال: «ما أوذي نبي بمثل (أو كما) أوذيت»[1].

---

(1) كنوز الحقائق (بهامش الجامع الصغير) ج2 ص82 و 83 والجامع الصغير ج2 ص144 و (ط دار الفكر) ج2 ص488. ومناقب آل أبي طالب ج3 ص42 وبحار الأنوار ج39 ص56 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص 102 وكشف الغمة ج3 ص346 وشرح منهاج الكرامة ص265 وراجع: جواهر

لماذا الامتنان؟!:

وما ذكرناه فيما سبق يدلنا على سبب هذا الامتنان الإلهي، فإنه جاء ليذكّر الناس بقيمة النعمة التي أولاها نبيه، وامتن عليه بها، حين شد أزره بأخيه ووصيه علي «عليه السلام».. وليدل على مكانة وعظمة وقيمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» عند الله تعالى.. ليزيد الناس تعلقاً به، وطاعة له، والتزاماً بأوامره ونواهيه..

وهذا إحسان منه تعالى لهم، ولطف ورفق بهم، وهداية ورعاية لابد أن تدعوهم إلى المزيد من الشكر والعرفان، والشعور بالفضل والامتنان.

وليربط بذلك على قلوبهم، ويطمئنهم إلى نصر الله تعالى لهم، مهما ادلهمت الخطوب، وضاقت بهم السبل، وتقطعت بهم الأسباب.

وليزيدهم بذلك ثقة بالله، وتصلباً في دين الله، فإن من كان الله تعالى معه لا يفقد شيئاً، ولا يحتاج إلى شيء، ومن لم يكن الله تعالى

المطالب ج2 ص320 وكشف الخفاء ج2 ص180 وتهذيب الكمال ج25 ص314 وكنز العمال ج3 ص130 الحديث رقم: (5817 و 5818) وج11 ص461 الحديث رقم: (32160 و 32161) وشرح أصول الكافي ج9 ص202 وميزان الحكمة ج1 ص67 وج4 ص3227 و 3228 وفتح الباري ج7 ص126 وفيض القدير ج5 ص550.

معه، فهو فاقد لكل شيء بالرغم من واجديته الظاهرة للأشياء.

فهذا الامتنان تربوي إصلاحي، ورحمة ومعونه ربانية، وسبيل هداية، وطريق نجاح، وصلاح وفلاح للأمة، ورفق بها، وتقوية لها في مواجهة المفسدين، والطواغيت والجبارين، وكل حشود الأبالسة والشياطين، من الجن والإنس أجمعين.

وضع الوزر بولاية علي ×:

وبعد جميع ما تقدم نقول:

إن الله تعالى قد خلق نور رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وسائر أهل بيته الطاهرين، قبل خلق الخلق، وكانوا أنواراً محدقين بعرش الله، وكان «صلى الله عليه وآله» شاهداً على الأنبياء منذ آدم «عليه السلام»، وهو الذي يقول: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» أو «بين الماء والطين»[1]. فلم يكن «صلى الله عليه وآله»

(1) راجع: الإحتجاج ج2 ص248 والفضائل لابن شاذان ص34 وبحار الأنوار ج15 ص353 وج50 ص82 والغدير ج7 ص38 وج9 ص287 ومسند أحمد ج4 ص66 وج5 ص59 و 379 وسنن الترمذي ج5 ص245 ومستدرك الحاكم ج2 ص609 ومجمع الزوائد ج8 ص223 وتحفة الأحوذي ج7 ص111 وج10 ص56 والمصنف لابن أبي شيبة ج8 ص438 والآحاد والمثاني ج5 ص347 وكتاب السنة لابن أبي عاصم ص179 والمعجم الأوسط ج4 ص272 والمعجم الكبير ج12 ص73

ليخفى عليه ما كان يطلب منه في هذا العالم، كما أنه لم يكن ليخفى عليه بعد ممارسته بعض ما يطلب منه طيلة تلك الأدوار أن علياً «عليه السلام» سيكون هو المعين والوزير، والوصي والأمير من

وج20 ص353 والجامع الصغير ج2 ص296 وكنز العمال ج11 ص409 و 450 وتذكرة الموضوعات للفتني ص86 وكشف الخفاء ج2 ص129 وخلاصة عبقات الأنوار ج9 ص264 عن ابن سعد، ومستدرك سفينة البحار ج2 ص392 و 522 وعن فيض القدير ج5 ص69 وعن الدر المنثور ج5 ص184 وفتح القدير ج4 ص267 والطبقات الكبرى ج1 ص148 وج7 ص59 والتاريخ الكبير للبخاري ج7 ص274 وضعفاء العقيلي ج4 ص300 والكامل لابن عدي ج4 ص169 وج7 ص37 وعن أسد الغابة ج3 ص132 وج4 ص426 وج5 ص377 وتهذيب الكمال ج14 ص360 وسير أعلام النبلاء ج7 ص384 وج11 ص110 وج13 ص451 ومن له رواية في مسند أحمد ص428 وتهذيب التهذيب ج5 ص148 وعن الإصابة ج6 ص181 والمنتخب من ذيل المذيل ص66 وتاريخ جرجان ص392 وذكر أخبار إصبهان ج2 ص226 وعن البداية والنهاية ج2 ص275 و 276 و 392 وعن الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج1 ص166 وعن عيون الأثر ج1 ص110 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص288 و 289 و 317 و 318 ودفع الشبه عن الرسول ص120 وسبل الهدى والرشاد ج1 ص79 و 81 و 83 وج2 ص239 وعن ينابيع المودة ج1 ص45 وج2 ص99 و 261.

بعده.

وكلنا يعلم: أن الله تعالى قد أمره بإعلان هذه الوصاية والإمارة، والوزارة حين نزل قوله تعالى: **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)**[1]. ففعل «صلى الله عليه وآله» ذلك، وكانت هذه الحادثة هي الإعلان الأول المباشر للناس، بأن الله تعالى قد وضع بذلك الوزر والثقل عن نبيه.

وقد ألمح «صلى الله عليه وآله» إلى ذلك فيما قاله للمجتمعين: «أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي، ووصيي وخليفتي فيكم».

فأحجم القوم عنها جميعاً. وقال علي: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه».

فأخذ برقبته «عليه السلام»، ثم قال: «إن هذا أخي، ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»[2].

---

(1) الآية 214 من سورة الشعراء.

(2) راجع هذه القضية في: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص63 ومختصر تاريخ أبي الفداء (ط دار الفكر - بيروت) ج2 ص14 وشواهد التنزيل ج1 ص372 و 421 و (بتحقيق المحمودي) ج1 ص542 وكنز العمال (الطبعة الثانية) ج15 ص16 و 117 و 113 و 130 عن ابن إسحاق، وابن جرير وصححه، وأحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل، وتاريخ ابن عساكر، وترجمة الإمام علي (بتحقيق المحمودي) ج1 ص87 و 88 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج13

هذا هو الأخطر:

وقد قلنا فيما سبق: أن رسول «صلى الله عليه وآله»، والأئمة من بعده هم الورثة والأمناء على كل جهود الأنبياء والرسل، والأوصياء، والشهداء، والصلحاء منذ آدم وإلى النبي الخاتم..

ص244 عن الإسكافي، وحياة محمد لهيكل (الطبعة الأولى) ص286. ومسند أحمد ج1 ص159 وكفاية الطالب ص205 عن الثعلبي، ومنهاج السنة ج4 ص80 عن البغوي، وابن أبي حاتم، والواحدي، والثعلبي، وابن جرير، وفرائد السمطين (بتحقيق المحمودي) ج1 ص86 وإثبات الوصية للمسعودي ص115 و 116 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص460 و 459. والغدير ج2 ص278 - 284 عن بعض من ذكرنا، وعن: أنباء نجباء الأبناء ص46 و 47 وشرح الشفاء للخفاجي ج3 ص37. وراجع أيضاً: تفسير الخازن ص390 وكتاب سليم بن قيس، وخصائص النسائي ص86 الحديث 63، وبحار الأنوار ج38 والدر المنثور ج5 ص97 عن مصادر كنز العمال، لكنه حرَّف فيه، ومجمع الزوائد ج8 ص302 عن عدد من الحفاظ وأسقط بعضه أيضاً، وينابيع المودة ص105 وغاية المرام ص320 وابن بطريق في العمدة، وتفسير الثعالبي، وتفسير الطبري ج19 ص75 والبداية والنهاية ج3 ص40 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص350 و 351 ومناقب أهل البيت «عليهم السلام» للشيرواني ص107 والتفسير الصافي ج4 ص53 والعثمانية للجاحظ ص303 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج14 ص427 وج30 ص80.

وبذلك يظهر: أن أي انتكاسة أو ضرر يصيب، أو خطر يواجه جهود نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وجهود أوصيائه جميعاً سوف يؤثر على جهاد وجهود جميع من ذكرنا، وسيكون انتكاسة لهؤلاء جميعاً، وستصاب الإنسانية بأسرها من بداية الدنيا إلى انتهائها بالإنكسار والخسران، ولن يكون قابلاً للجبران..

ولكن أي ضرر أو خطر أو انتكاسة تصيب جهود أي نبيٍ أو رسول أو وصي من الأمم السالفة، سوف يبقى محصوراً في الدائرة التي هو فيها. وسيأتي الأنبياء والأوصياء من بعده، فيعيدون الأمور إلى نصابها، ويزيلون الخطر والضرر بإذن الله.

وهذا هو الفرق بين حال نبينا وحال أوصيائه، وحال الأنبياء الآخرين وأوصيائهم.

من هاهنا أتينا!!:

كما أن ثمة فرقاً آخر بين حال نبينا وحال سائر الأنبياء الذين سبقوه، وهو أن التحديات التي واجهها «صلى الله عليه وآله» تختلف عن جميع التحديات التي واجهتهم «عليهم السلام» في أنها قد جاءت بالنسبة إلى نبينا «صلوات الله عليه وآله» في أشد المواضع رهافة، وأكثرها حساسية، وأعظمها خطراً وأثراً، لأنها جاءت من الداخل، أي من الأقربين، ومن العشيرة والأهل، وكان التحدي لدينه بالدرجة الأولى.

أما الأنبياء السابقون، فقد جاءهم البلاء من الطواغيت والجبارين.. ومن أصحاب المصالح، وطلاب اللبانات، وعبيد الشهوات. فإبراهيم ابتلي بنمرود، وموسى ابتلي بفرعون، وعيسى باليهود، وقوم لوط كانوا يريدون إطلاق أيديهم في ممارسة انحرافاتهم الأخلاقية، ومتابعة أهوائهم وشهواتهم، ونزواتهم.. وقد كان إبراهيم «عليه السلام» من ورائه..

ولم نجد في القرآن ما يدل على أن الحرب قد شنت على نبي من الأنبياء، في دينه، وفيما جاء من خصوص أهله وعشيرته الأقربين، كما كان الحال بالنسبة لنبينا «صلى الله عليه وآله».

بل نجد ما يدل على أن قوم بعض الأنبياء كانوا يتمنعون عن إيذاء النبي إذا كان منهم، شاهدنا على ذلك قول قوم شعيب لشعيب: **(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا)**(1).

كما أن قوم موسى «عليه السلام» كان لهم دور في امتناع فرعون عن البطش به، وبهارون كما سيأتي.

ونضيف: أن دعوة الأنبياء لا تقتصر على إبلاغ الأحكام، والتعاليم، والحقائق الدينية، ولا على إقامة حكومة، وإجراء سياسة،

(1) الآيتان 91 و 92 من سورة هود.

والقيام بأنشطة اجتماعية، ولا على الدعوة إلى الالتزام بطقوس عبادية، بل هي ـ كما قلنا ـ تزكية وتطهير، ثم تدخل مباشرة في تكوين شخصية الإنسان وإيجاد تحولات عميقة في فكره وفي روحه وفي أخلاقه وفي مختلف حالاته.. وصياغة لعلاقاته بالله وبالنبي والإمام والعالم، والرفيق والصديق، وكل ما في هذا الوجود على أساس الحب والمودة والاحترام.. وتغييرات أساسية في الأحاسيس والمشاعر والعواطف، وكل ذلك يحتم أن تكون علاقة الإنسان بنبيه وإمامه علاقة تعظيم، وإجلال وتقديس، وأن يدخل النبي والإمام إلى وجدان الناس، ويهيمن على أرواحهم وعلى ضمائرهم، ويستبد بنفوسهم، ليتمكن من إحداث هذا التغيير الهائل فيها، ويطهرها ويزكيها..

فإذا جاء الرفض والاتهام والافتراء على النبي، واتهامه بالسحر، والشعر، والجنون.. وما إلى ذلك من أهله الأدنين، ومن عشيرته الأقربين، الذين يظن الناس أنهم سوف يتعصبون له، ولا يفرطون به، إلا إذا كان الأمر في جنوحه إلى الفساد والسقوط قد تجاوز الحدود وصار غير قابل لأن يتحمل حتى أقرب الناس إليه مسؤولية وعواقب السكوت عنه.

فإذا تجاوز الأمر ذلك، وبلغ حد إصرارهم على توجيه التهم، والافتراءات إليه، والاجتهاد والحرص الظاهر على الكيد له، وإبطال ما جاء به، فإن الأمور ستصبح أكثر تعقيداً، وأعظم ضرراً وأشد خطراً على الدعوة وعلى صاحبها، والداعي لها.. ولعله إلى هذا يشير

«صلى الله عليه وآله» بقوله: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت»، أو نحو ذلك.

ولا ننكر أن يكون في الأدنين من أقارب الأنبياء السابقين من كانوا يكذبونهم، ويؤذونهم، فحديث زوجتي نوح ولوط، وما جرى ليوسف مع إخوته لم يغب عنا، ولكننا نقول: إن ما جرى لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعلى الأئمة الطاهرين من بعده كان أعظم وأشد إيلاماً، وخطورة مما جرى عليهم من سائر أعدائهم. ولم يبتل الأنبياء السابقون بما يقارب ما جرى، ولا يزال يجري عليهم «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»، فإن أعظم المصائب والبلايا لا تزال تواجه الإسلام الحنيف من أبنائه إلى يومنا هذا، وهي تستهدف ما جاء به رسوله العظيم والأئمة الطاهرون بأشد أنواع التهم والافتراءات، ولا يزال هؤلاء المتسمّون باسم الإسلام يقتلون وينكلون بالمسلمين الحقيقيين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ومما يوضح ما نرمي إليه: أن الذين حاربوا الرسول «صلى الله عليه وآله» من قومه، وعشيرته لم يكونوا أناساً عاديين، بل الناس في طول البلاد العربية وعرضها، كانوا يكنون لهم احتراماً وتقديراً، ويعظمونهم ويجلونهم بما لا مزيد عليه، لأنهم سدنة الكعبة، وسادة مكة، البلد الذي يقدسه الناس في جميع أقطار الأرض ويحجون إليه

ليتبركوا به، ويطلبوا فيه حاجاتهم، وشفاء مرضاهم، وحل مشاكلهم.

وكان لأهل مكة مكانة خاصة عند الناس في مختلف الأقطار والأمصار.

فإذا رأى الناس أن أهل مكة أنفسهم ـ وهم قوم رسول الله ـ يكذبونه، ويرفضون دعوته، ويتهمونه بأنه ساحر، أو شاعر، أو مجنون، بل ويحاربونه، ويسعون في قتله، فإن من الصعب أن يتجرأ أحد على الاقتراب منه، وقبول دينه.

فكيف إذا كان عمه ـ أبو لهب ـ يلاحقه من مكان إلى مكان، ويسير وراءه حين كان «صلى الله عليه وآله» في المواسم يعرض دعوته على القبائل الوافدة إلى مكة، فكان إذا تركهم «صلى الله عليه وآله» جاءهم عمه، وعرفهم بنفسه، وبأنه أعرف الناس بابن أخيه، ثم يحذرهم من قبول دعوته. والدخول في دينه، وربما كان يهدد بعضهم بإلحاق الأذى بهم، لو استجابوا لدعوته «صلى الله عليه وآله».

واجعل لي وزيراً من أهلي!!:

والبيان المتقدم يدلنا على السبب في أن موسى «عليه السلام» قد طلب من الله تعالى أن يجعل له وزيراً من أهله.. فقد قال: **(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)**.

ويفسر لنا بعض مرامي قوله «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، أو نحو ذلك.

فوارق بين علي وهارون:

ولكن ما تقدم لا يعني التشابه من جميع الجهات، فإن هناك فوارق أساسية وكبيرة وعديدة بين قصة هارون وموسى «صلوات الله عليهما»، وبين قصة علي «عليه السلام» في موقعه من رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ومن هذه الفوارق:

أولاً: إن موسى قد واجه فرعون الذي كان يدعي الربوبية، ويستولي على ملك مصر، ويرى في دعوة موسى خطراً على ملكه، وعلى ما يدعيه، وعلى مقامه.

ولو اطمأن فرعون إلى أن موسى سوف لا يتعرض لملكه ولا لموقعه ومقامه، فلعله لم يكن ليحرص هذا الحرص على التخلص منه، أو على إثارة صراع ضده.

ولكننا مع ذلك نلاحظ: أن موسى «عليه السلام» حين ذهب إلى فرعون، وكان قد حصل على الوزير الذي يشد أزره، ويصدقه، وهو ردء له، كان مطمئناً إلى أن معه من يعينه، وإلى أنه تعالى سيجعل له سلطاناً، وإلى أن فرعون ومن معه سوف لا يصلون إليه، ولا إلى أخيه.. قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي

هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)[1].

فكان ما جرى بين موسى وبين شخص آخر من أعدائه حدثاً، كان حدثاً له «عليه السلام» مع شخص لا مع شعب وقوم، وهذا الشخص كان يخشى على ما يدعيه، وعلى ما في يديه، وهو طاغوت وجبار وظالم وغاشم.

أما قوم موسى فكانوا بصورة عامة معه، وإلى جانبه ضد ذلك الطاغوت، وهو فرعون الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويذيقهم أنواع المهانة والظلم والأذى، وإن كانوا على حالة من الوهن والضعف.

أما أعداء رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فهم قريش بالذات، وهم قومه، وكانوا هم الطاغوت، والخطر على الدين وعلى رسول الله، وكان أبو جهل «فرعون هذه الأمة»[2]. فيهم ومنهم.

ثانياً: كان لقوم رسول الله المكذبين له قداسة ومحبة، وتعظيم في

---

(1) الآيات 33 - 35 من سورة القصص.

(2) راجع: الإمامة والسياسة ج1 ص24 و (تحقيق الزيني) ج1 ص29 و (تحقيق الشيري) ج1 ص43 وحياة الإمام الحسين «عليه السلام» للقرشي ج1 ص309 ودلائل الصدق ج3 ق1 ص117.

نفوس الناس، لأنهم سدنة بيت الله، وسكان حرمه.. ولم يكن لعدو موسى سوى الكره والبغض في قوم موسى. بل كان موسى مرضياً في قومه.

ثالثاً: لو بطش فرعون بموسى، ولم يستطع قوم موسى أن يدفعوا عنه، فإن دعوة موسى قد لا تموت، لأن قومه المستضعفين كانوا يتعاطون معه، ويرون أنه قد قتل مظلوماً على يد جبار غاشم أوغَلَ بدمائهم، وقد ظهر من قضية قتل القبطي أن لموسى شيعة ينصرهم وينصرونه، فقد قال تعالى: **(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)**(1).

وفي آية أخرى قال عن موسى: **(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا)**(2).

أما قوم رسول الله «صلى الله عليه وآله» ـ وفيهم الطغاة الجبارون كما تقدم ـ فلم يكن فيهم إلا أقل قليل راغباً في حفظ رسول الله.

أما من يرغب بظهور دعوته لو أصيب «صلى الله عليه وآله» بسوء، فهم أقل القليل.

---

(1) الآية 15 من سورة القصص.

(2) الآية 19 من سورة القصص.

رابعاً: وثمة فرق آخر، تقدم التنويه به، وهو أن أي ضرر يلحق دعوة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإنه سيصيب كل جهود الأنبياء، من لدن آدم وإلى يوم القيامة. وليس الأمر في موسى كذلك، فإن الضرر يبقى محصوراً في محيطه الخاص به.

خامساً: إن الخلل الذي يحدث في زمن الأنبياء السابقين يبقى قابلاً للإصلاح والتدارك على يد الذين يأتون بعد الأنبياء. أما الضرر الذي يصيب جهود رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإن تداركه سوف يحتاج إلى مؤونة أكثر، وإلى معونة أكبر، وربما إلى تدخل إلهي مباشر..

سادساً: إن موسى «عليه السلام» هو الذي اقترح اسم أخيه هارون ليكون هو المعين له، والشريك في أمره. أما علي «عليه السلام»، فإن الله تعالى هو الذي اختاره ابتداءً، ليكون هو المؤازر والوزير، والوصي، وهو الذي سماه الله أميراً للمؤمنين.

سابعاً: كانت مهمة هارون هي مؤازرة أخيه في مواجهة فرعون، وأن يشاركه الجهود في هداية بني إسرائيل. وقد انتهت مهمته بعد موت فرعون، ثم انتهت تجاه بني إسرائيل، فقبضه الله إليه في حياة موسى نفسه.

أما مهمة أمير المؤمنين «عليه السلام»، فكانت في حياة الرسول، وبعد استشهاده أيضاً، وما كان يطلب منه بعد استشهاد الرسول كان يوازي الرسالة كلها. كما أشير إليه في قوله تعالى في آية

الولاية يوم الغدير: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)**(1).

لقد كان «عليه السلام» يعرف أن عليه أن يواجه التحدي الأعظم لكي يبقى هذا الدين بعد موته «صلى الله عليه وآله».

فلا يقاس ما كان يطلب من هارون «عليه السلام» بما كان يطلب من أمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليه» في حياة الرسول وبعده، فهارون كان ردءاً لموسى من فرعون، وعلي «عليه السلام» ردء للرسول وللرسالة وسبب لبقائها في حياة الرسول وبعد وفاته.

ثامناً: إن المواجهة مع فرعون كانت مواجهة مع رجل كان مستكبراً، ومدعياً للربوبية، ولديه ملك ومال، وعساكر ورجال، وله طموحات شخصية، يسعى لتسخير الناس، لنيلها، والاحتفاظ بما في يديه منها، فهو يريد التنعم بالملك والمال، والشهوات، ويريد أن يحمل الناس على مساعدته فيما يريد.

وما يريده فرعون لنفسه، وهو قتل موسى، قد يقال: إنه لا يعني الناس كثيراً لا من قريب ولا من بعيد. وإن كان قد حاول أن يخدعهم حين قال لهم: **(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ**

(1) الآية 67 من سورة المائدة.

دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[1]. وقال تعالى: **(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)**[2].

وقد وافقه على قوله هذا كبار أعوانه ووزرائه، كما تدل عليه سائر الآيات[3].

ثم هو يسحب نفسه من دائرة التحدي بعد أن تلقى ضربة قاسية لعنجهيته واستكباره، فقال للناس: **(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)**[4].

ويلاحظ هنا: أن قول فرعون: **(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)** يدل على ما تقدم من أن فرعون كان يرى أن لموسى منعة وحصانة بقومه تمنعه من المبادرة إلى قتله، ويبدو: أن موسى كان يعلم ذلك، ولذا حين أمره الله تعالى بالذهاب إليه لم يقل: أنا ضعيف ولا ناصر لي. بل قال: **(إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)**[5].

أما فيما يرتبط بالنبي «صلى الله عليه وآله»، وبعلي «عليه السلام» المواجهة كانت لهما مع الناس أنفسهم، بلا فرق بين أصحاب النفوذ

---

(1) الآية 26 من سورة غافر.

(2) الآيتان 34 و 35 من سورة الشعراء.

(3) الآيتان 109 و 110 من سورة الأعراف، والآية 63 من سورة طه.

(4) الآية 29 من سورة غافر.

(5) الآية 45 من سورة طه.

وبين غيرهم.

وهؤلاءالناس هم قومهم؛ حيث كانوا يرون أن دعوة النبي «صلى الله عليه وآله» تستهدفهم في اعتقادهم، ويعتبرونه معتدياً عليهم، ويريد أن يسلبهم دينهم، وهو أعز شيء لديهم، وأنه يقضي حاجاته، ويدفع الأسواء عنه، ويشفي مرضاه، ويحل مشاكله، وما إلى ذلك.

فاتضح أن الشبه بين منزلة علي «عليه السلام» من النبي «صلى الله عليه وآله»، وبين منزلة هارون من موسى محصور في موضوع الوزارة والمعونة، ومواجهة الطاغوت. وأما في سائر الجهات فبينهما فوارق ظاهرة.

لاسيما وأن التحدي الذي يواجهه علي «عليه السلام» والنبي الكريم «صلى الله عليه وآله» أعظم، وأشد بكثير من التحدي الذي كان يواجهه موسى «عليه السلام» في مقابل فرعون، حتى لو ادعى

الفصل

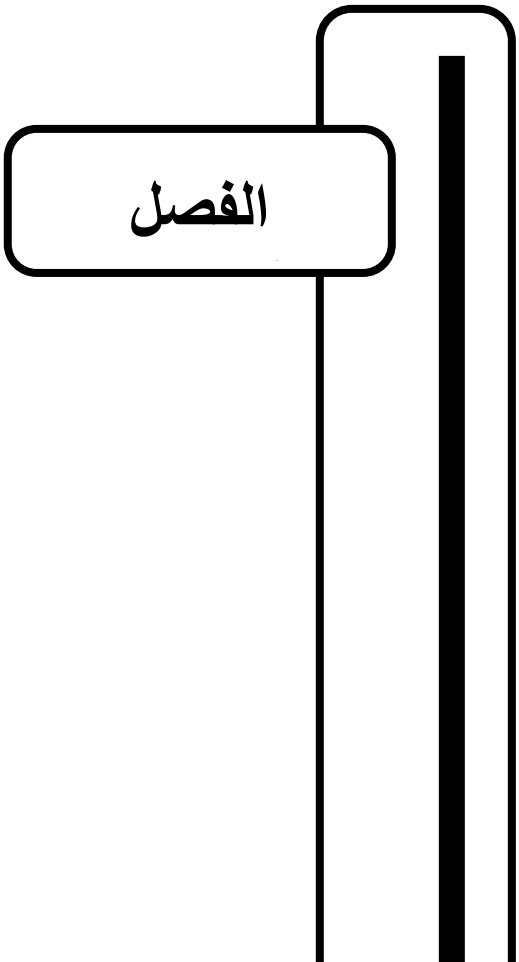

الفصل الخامس:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

بداية:

فيما يرتبط بقوله تعالى: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)** نقول:

هناك من يقول: إن المقصود برفع الذكر هو جعل اسم رسول الله «صلى الله عليه وآله» مقترناً بكلمة التوحيد في الأذان، كل يوم خمس مرات إلى يوم القيامة.

مع أن نفس هؤلاء يقولون: إن سورة ألم نشرح قد نزلت في أوائل البعثة في مكة..

وأن الأذان قد شُرِّع بالمدينة استناداً إلى رؤيا عبد الله بن زيد.

ونحن، وإن كنا قد أبطلنا هذه الروايات في كتابنا: «الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله».. وقلنا: إن الأذان قد ورد في حديث المعراج الذي كان في أول البعثة، بالإضافة إلى أمور أخرى يمكن مراجعتها في ذلك البحث في الكتاب المشار إليه..

غير أننا نقول:

1 - إن قول هؤلاء يدل على أنهم يقولون الشيء ونقيضه، فلا ينبغي الاعتداد بأقوالهم إن لم نجد ما يؤيدها، ونتأكد من سلامتها من الخلط والخبط، والغلط..

2 ـ إن مجرد جعل اسم النبي «صلى الله عليه وآله» في الأذان لا يعني حل المشكلة، إذا كان الأمر يقتصر على مجرد الجعل، الذي يمكن أن يبقى محاصراً بالمتاعب والمصاعب، ومضطهداً ومقهوراً على الصعيد العملي..

إلا إذا كان هذا التشريع إيذاناً وإعلاماً، ووعداً بالنصر وبظهور الأمر.

وفي جميع الأحوال نقول:

لا بد من البحث عن المعنى الأصرح والأوضح في رفع الذكر، بحيث يؤدي هذا الرفع بصورة عملية وحاسمة إلى أن يكون النصر، وظهور الأمر أمراً واقعاً، ومحفوفاً بالشواهد والأدلة، التي لا تقبل التأويل.

وهذا ما سنوضحه فيما يلي، فنقول:

كيف نفهم رفع الذكر؟!:

يمتاز نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» عن سائر الأنبياء بأن الله سبحانه قد رفع ذكره منذ خلق نوره، وعرَّف به الأنبياء السابقين، منذ آدم «عليه السلام»، وأراهم نوره، وأنوار الأئمة الطاهرين من أهل بيته «عليهم السلام»، وهي مطيفة بعرش الله تعالى.

وكان الأنبياء يتوسلون به وبهم في شدائدهم، كما هو الحال فيما جرى لآدم «عليه السلام»، كما ذكرناه في كتابنا «براءة آدم».

وكذا الحال في قصة نوح وسفينته، وإبراهيم ونار نمرود،

وموسى وفرعون، ويونس والحوت، وما إلى ذلك.

يضاف إلى ذلك: أنه تعالى قد ذكر اسمه وصفته «صلى الله عليه وآله» في كتب الأنبياء السابقين، وعرفهم بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولأجل ذلك كان اليهود قبيل البعثة الشريفة يتهددون مناوئيهم من العرب بنبي قد أظل زمانه، سوف يقاتلونهم معه ويقتلونهم.

وهذا كله من مفردات رفع الذكر الذي يسهل الأمر على رسول الله «صلى الله عليه وآله» في أهدافه ومهماته وغاياته، ويسهم في إرباك أعدائه وإحراجهم، ويضعف عزائمهم، ويثير في نفوسهم مخاوف كثيرة من عواقب ما يقدمون عليه.

الوسائل بحجم المهمات:

ويزيد الأمر وضوحاً: أن الدعوات والقضايا الكبرى ـ إذا كانت بحجم البشرية كلها، وتواجه تحديات على مستوى الإنسانية جمعاء ـ لا بد أن تتوفر لها وسائل فعل وتأثير ومواجهة بحجم تلك الأهداف، وقدرات وإمكانات توصل إلى تلك المقاصد، وتستطيع مواجهة تلك التحديات، وتحقيق النتائج المتوخاة.

فإن كانت الأهداف هي تسهيل أمور بلد، أو إقامة دولة، أو على مستوى قارة، أو التسلط على قرارها السياسي، وإمكاناتها الاقتصادية. فوسائلها تكون متناسبة مع هذه وتلك.

وهذه الوسائل والقدرات قد تكون سلاحاً، أو عتاداً، أو جيوشاً، أو أجهزة أمنية، أو قدرة سياسية، أو إعلامية، أو هيمنة وسلطاناً، وهيبة وملكاً، وجاهاً عريضاً، وجبروتاً وعنفواناً. وقد يستفيد أهل الباطل من وسائل تضليلية، أو من وسائل بطش وظلم، واحتيال ومكر، وما إلى ذلك.

وأما أهداف الأنبياء، فالأمر فيها أعظم وأخطر، لأنها تريد أن تعيد صناعة الإنسانية في الإنسان: في الفكر، والروح، والنفس، وفي صياغة سلوكه، والهيمنة على كل حركة وسكون فيه.

إن هدف الأنبياء هو إعادة صياغة السلوك والعلاقات، والنسيج العام في المجتمعات، والسياسات، والطموحات، والأهداف، والأفكار، والسلم والحرب، والشجر والحجر، والهواء والماء، والأرض والسماء، والعادات والأخلاق، والنفس والروح، والخصائص والخصال، وضبط كل حركة في كل مجال، حتى حين يخلو الإنسان بنفسه، ولا يراه غير ربه.

بل ضبط حركة كل ما في هذا الوجود حتى الجن والإنس، والوحش والطير، وكل ما خلقه الله تعالى في كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمهما كبرت أهداف البشر، ومهما كانت طموحات أعظم الطواغيت والجبارين كبيرة وخطيرة، فإنها تبقى صغيرة في جنب ما يريده الأنبياء.

وإذا كانت أعظم الدول المهيمنة على البشر تعجز عن فرض حفنة صغيرة جداً من المقررات والقوانين على مجموعة من الناس، ولفترة زمنية محددة، بالرغم من كل القوى التي يجندونها، ومن القدرات التي يوظفونها. فإن تأثير كل قدراتهم يبقى في حدود الظواهر، التي يتم اختراقها ليل نهار.

مع أنهم يجدون المعونة والاستجابة من جميع الفئات، لأن تلك المقررات والقوانين تنسجم مع أهوائهم، وتحمي انحرافاتهم، وتساعدهم على نيل شهواتهم، وتحميهم وهم يمارسونها.

ولكن دعوات الأنبياء تواجه بالرفض والتحدي ليس من الطواغيت والجبارين وحسب، بل من الناس أنفسهم الذين يرون أن دعوات الأنبياء تريد أن تجعل شهواتهم تحت السيطرة، وأهواءهم منضبطة في حدود المصالح العليا، وفي نطاق السلامة العامة.

والناس، وإن كانوا يتفهمون ذلك من الناحية العقلية والوجدانية، ولكن الذي يهيمن على تصرفاتهم في الغالب هو نفس الشهوات والأهواء. أما عقولهم فتبقى رهينة وأسيرة لها.

ولأجل ذلك كانت مهمات الأنبياء في غاية الصعوبة، لأن عليها أن تواجه التمرد والتحدي في داخل كل إنسان، لا لمرة واحدة وحسب، بل في كل لحظة لحظة، فإن الخطر يبقى قائماً إلى آخر حياة كل إنسان، فإن أدنى غفلة، أو تساهل، أو ضعف، يحفز النفس

الأمارة، ويدعو شياطين الجن والإنس إلى أن تشرئب بأعناقها، وتبادر إلى التفلت والتملص، والانغماس في الموبقات من جديد.

ومما ذكرناه نعرف لماذا كانت وسائل الأنبياء في الدفاع والهجوم لا تشبه الوسائل التي يستفيد منها البشر في تحقيق أغراضهم، فإن وسائل الأنبياء قد تجاوزت الوسائل المألوفة، كالمال، والرجال، والإعلام، والسياسة، والجيوش والسلاح، وأجهزة الأمن، وما إلى ذلك.. لاعتماد التربية الأخلاقية والوجدانية، والنفسية، والرياضات الروحية، وتكوين مشاعر، ونسج علاقات بالغة الدقة والعمق والرسوخ مع الله، ومع الناس، ومع كل ما في هذا الوجود، من دون التخلي عن ذرة من المبادئ والقيم، التي انطلق منها.

الوسائل الثلاث:

ونلخص مضمون هذه الآيات الثلاث التي في أول سورة «ألم نشرح» على النحو التالي:

إن الوسائل التي لا بد من اعتمادها من قبل الأنبياء في إنجاز مهماتهم الكبرى تسير في ثلاث اتجاهات:

الأول: ما يرتبط بالقائد والرائد والرسول نفسه، المشار إليه بقوله تعالى: **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)** الدال على توفر الاستعدادات والقدرات الذاتية، لدى هذا الرسول العظيم، حيث شرح الله صدره لهذا الأمر العظيم في كل حال، وكل مجال، فيتسع صدره للناس بالمنطق، وبالحلم، والخلق الرضي، وبالإيثار، وبالتضحيات، وبالمحبة،

وبالعطف، حتى إنه تذهب نفسه حسرات عليهم، وبالعلم، وبالمعرفة، وبالقناعة، وبالصدق، وبالوفاء وبالاهتمام بحل مشاكلهم، وبكل ما يسعدهم.

فهو لا يريدهم لنفسه، ولا أن يستفيد منهم كآلات، ووسائل لأغراض لا تعنيهم، بل يريدهم لأنفسهم، ولأجل مستقبلهم.

الثاني: أن يتوفر المعين الصادق الذي يعطي الوثوق بالنجاح والطمأنينة إلى وصول الجهود إلى خواتيمها السعيدة. الأمر الذي يريح وجدان القائد، ويبعث البهجة في نفسه، ويزيده إصراراً وصلابة، وقوة في العزيمة، ورضىً في النتائج، لشعوره بأن ثمرات جهوده وتضحياته مصونة، وفي أيدٍ أمينة، ولن تضيع في الدنيا، كما لا تضيع في الآخرة.

وهذا ما حصل بالفعل حين شد الله تعالى أزر نبيه «صلى الله عليه وآله» بوصيه ووزيره، وهو علي «عليه السلام»، الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى.

وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: **(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)**. وعلى هذا الأساس جاء قوله تعالى: **(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)**[1].

---

(1) الآية 52 من سورة التوبة.

فإن استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يعني ضياع جهوده، فهناك حافظ وكافل، وراع فاضل.. يتابع ويواصل. وستبقى الدعوة والرسالة وتتنامى، فإن الله **(مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)**[1]، والمشركون، والخائنون، والمتآمرون.

أما نحن، أعني المؤمنين، فنتربص بكم الدمار والهلاك، والبوار والفشل، والخيبة لكل مشاريعكم وآمالكم، حتى لو قتلتمونا، ونكلتم بنا في الدنيا.

وهذا ما دعا أمير المؤمنين «عليه السلام» لأن يقول حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه: «فزت ورب الكعبة».

فإن ما ذكرناه هو سبب هذه الثقة، بل هذه الفرحة بهذا الفوز، فصلوات الله وسلامه عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته..

الثالث: ما أشير إليه بقوله تعالى: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، فإنه قد رفع ذكره «صلى الله عليه وآله» طيلة العهود التي مرت بها البشرية، من لدن آدم، بل وقبل ذلك أيضاً. حيث كان يلهج بذكر النبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة الطاهرين من أهل البيت «عليهم السلام» جميع الأنبياء والمرسلين، وقد ذكره الله تعالى باسمه وصفته في الكتب السماوية المنزلة، وتوسل به وبأهل بيته الأنبياء، حين كانوا يواجهون المحن، وعرفهم الملائكة، ورأوا أشباحهم وأرواحهم مطيفة

---

(1) الآية 8 من سورة الصف.

بالعرش..

وشاع ذكرهم في سائر الأمم السالفة، وعرفهم أهل الملل، وكان اليهود يتوعدون به أهل المدينة، ويخبرون بأن زمان ظهوره «صلى الله عليه وآله» قد حضر، وأنهم سيكونون معه، وسيحاربون أهل المدينة معه. فلما بعث «صلى الله عليه وآله» انعكست الآية، فكان اليهود ضده، وأهل المدينة معه..

وقد عزز ذلك وقواه نفس نشأته «صلى الله عليه وآله» في أهل مكة ـ حيث كان بينهم كل لحظات حياته ـ ومعرفتهم الدقيقة بكل كبيرة وصغيرة عنه، ووقوفهم على كل تفاصيل وجزئيات ما جرى له وعليه، واشتهاره بينهم بكل فضل وخير وطهر، وأمانة وصدق، وكمال واستقامة، وما إلى ذلك. ومعرفتهم بأنه لا ينقصه شرف، فهو أشرف الناس وأكرمهم، ولا يستغرب عنه صلاح وخير، فهو قد نشأ في بيئة إيمان، واستقامة، وعزة، وشهامة، وقداسة وكرامة، فلا مجال لاتهامه بأي عيب أو نقص، أو طمع بجاه أو بمال، أو بدنيا يصيبها، أو فضيلة ينالها، أو مزية يطلبها. وقد شاع ذكره في ذلك كله، وذاع، وقرع الأسماع حتى لقد تسمى الكثيرون في الجاهلية باسم محمد أو أحمد، رجاء أن يكون هو المعني بما ورد في الكتب السماوية، والذي أخبر عنه الأنبياء، ويلهج بذكره وبظهوره أهل الأديان..

فذلك كله لم يدع مجالاً للريب بصدقه وأمانته، وقطع الشك لديهم

باليقين بأن له شأناً لا يمكن إنكاره ولا المماراة فيه.

يضاف إلى ذلك كله: ما أظهر الله له «صلى الله عليه وآله» من معجزات وكرامات، ثم ما جاء به من الحق الظاهر، والمعجز القاهر، وجمال الحق الباهر الذي يبشر به ويدعو إليه، حتى وجد مناوئوه أنهم أمام أمر لا قبل لهم به، ولكنهم عاندوا وكابروا، وآذوا وحاربوا، فصاروا مصداقاً لقوله تعالى: **(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)**[1].

وأظهره الله تعالى عليهم بالرغم من بغيهم عليه، وأذاهم له، وإساءتهم إليه.. وبالرغم من كل جبروتهم، وقوة نفوذهم، وشدة خضوع الناس لهم، ونفوذ كلمتهم فيهم، وهيمنتهم عليهم.

نقول هذا.. مع يقيننا بأنه «صلى الله عليه وآله» لم يبدأهم بالحرب، بل كان يدافع عن نفسه وعن المستضعفين، لأن أعداءه كانوا يريدون أن يمنعوه من ممارسة حريته في أن يفكر، وأن يعتقد بما يقتنع به. ومصادرة فكره، واعتقاده بقوة السيف، والله تعالى يقول: **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)**[2]. ويقول: **(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)**[3]. وآيات كثيرة أخرى.

---

(1) الآية 14 من سورة النمل.

(2) الآية 256 من سورة البقرة.

(3) الآية 29 من سورة الكهف.

فدافع «صلى الله عليه وآله» عن حريته وعن نفسه، وعن المستضعفين، مستفيداً في دفاعه هذا من وسائل خير وطهر وصلاح، فلم يمكر بأحد ولم يغش، ولم يظلم، ولم يظهر خلاف ما يبطن، ولم يدع للباطل أو بالباطل، ولم يشتر الناس بالمال، ولم يقهر الآخرين على أمر لا يريدونه، ولم يستفد من هيبة السلطان، ولا من كثرة الأعوان، ولا استفاد من أية وسيلة من وسائل الباطل، ولم يتلاعب بالعواطف، ولا أثار الغرائز والشهوات، ولا اعتمد على الشائعات، ولا على غير ذلك من أساليب أهل الباطل الذين يحرقون بلداً لكي يشعلوا عود ثقاب.

فكانوا يستعملون أشد الوسائل تدميراً للعقول والنفوس، والأرواح، والكرامات، وللمعنويات وللمستقبل، وللعلاقات والسياسات، بل كانوا ناراً تأكل الأخضر واليابس.

وإذا رجعت إلى أسباب تعاملهم هذا مع الناس، أو مع الطوائف والجماعات، أو مع الدول والشعوب، فإنك غالباً ما تجد أن سبب ذلك خطأ صغير أو تافه، أو شهوة عارضة، أو جشع، أو طمع، أو مرض نفسي، كالاستكبار والغرور، والأنانية، وما إلى ذلك.

لم يقل: كرمناك وعظمناك!!:

وإنما قال الله تعالى لنبيه: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، ولم يقل: كرمناك

وعظمناك، مع أنه قال في مورد آخر: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)**[1]. لأن المطلوب التلميح إلى أن التهم والافتراءات التي كان أعداء الحق والدين والأخلاق يحاولون إلصاقها به «صلى الله عليه وآله»، لإسقاط محله، وتضعيف أمره كانت تذهب هباء، بل تزيده رفعة وتألقاً، حيث كانت تدعو الناس للتأمل في أحواله وفي تاريخه، فتتجلى لهم مزاياه، ويرى الناس التفاوت الشديد بين الواقع الذي يرونه وبين تلك الافتراءات التي يسمعونها من مناوئيه.

فكان ذلك أيضاً من أسباب رفع ذكره، وظهور أمره. وصدق الله تعالى حيث يقول: **(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)**[2].

(1) الآية 70 من سورة الإسراء.
(2) الآية 98 من سورة الصافات.

الفصل

فَـإِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـرًا..

لماذا الفاء في (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)؟!:

ونحن إذا تأملنا الآيات الأربع التي سلفت، وهي قوله تعالى: **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، فسنجد أنه يمكن أن نفهمها على أنها بمثابة تفريع يراد به تقرير أن هذا الذي جرى إنما جاء وفق قاعدة سارية تقول: **(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)**.

ولأجل ذلك جاء بفاء التفريع، ليدل على أن هذا من منطبقات تلك السنة الجارية والسارية في جميع موارد العسر، والسنة هي: أن كل عسر ينطوي على يسر يصاحبه، ويوجد معه بالفعل، وإن كان يخفى عن الأعين، ولا يلتفت إليه الناس.

فتكون الفاء في قوله: **(فَإِنَّ مَعَ)** لتفريع هذا المصداق على تلك القاعدة التي انطلق منها. وسيأتي مزيد توضيح لهذه النقطة تحت عنوان: لماذا لم يقل: فإن مع كل عسر يسراً، فانتظر.

البرهان الحسي:

وهذه قاعدة أساسية ومصيرية، وحساسة في حياة البشر، وفي حركتهم الدائبة وسعيهم الحثيث إلى الله، وإلى غاياتهم الفاضلة، وفي

سعيهم إلى الحصول على كمالاتهم.

ولشدة حساسية هذه القاعدة، وليؤكد القناعة بها لدى الناس، أقام تعالى عليها البرهان الأقرب إلى وجدان البشر، والذي ينصاع البشر له بصورة أيسر وأسرع، وهو البرهان الحسي الذي ساقه مضمون الآيات الأربع المتقدمة في أول هذه السورة، بدأ من: **(أَلَمْ نَشْرَحْ)** إلى **(لَكَ ذِكْرَكَ)**.

أهمية هذه الضابطة:

وتكمن أهمية هذه الضابطة في أن اعتمادها، والحركة في الحياة على أساسها يسهل أموراً، ويحل مشكلات كثيرة، فمثلاً:

1 - إن اعتمادها يحصن الإنسان من حالات الفشل النفسي، ويطرد عنه الشعور بالإحباط.

2 - يعطي الإنسان المزيد من الثقة بالمستقبل، ويمنحه جرعة من التفاؤل والأمل، ويمنع عنه اليأس.

3 - يؤكد قدرة الإنسان على الثبات في الصعاب، ويزيده إصراراً وقوة، وصلابة في مسيرته العملية. فلا كلل ولا ملل، ولا إحباط ولا فشل.

4 - إنه يدعو الإنسان إلى المزيد من التأمل، وتقليب وجوه الأمر، ليكشف مكان اليسر، الذي يمثل الحل الأمثل للمشكل الذي يواجهه.

5 - إنه يفتح له باب الأمل في أن تظهر أمامه في المستقبل مستجدات، أو أمور كان قد عجز عن كشفها، أو حيل بينه وبينها بموانع إما ضعفت أو زالت، لسبب أو لآخر.

6 - إن هذا الأسلوب من شأنه أن يخرج الإنسان من حالة السذاجة، وأخذ الأمور بظواهرها، ليصبح أكثر وعياً، وأشد حساسية، وأكثر تعمقاً في الأمور، ويدعوه لدراستها بدقة. فإن أكثر البلاءات التي يتعرض لها الناس إنما هي بسبب غفلتهم.

7 - إن الإخبار بوجود اليسر بالفعل، وأنه كامن مع العسر فيه تحفيز واستثارة للفضول، ودعوة إلى عدم الاعتماد على الوعد، أو على الصدف، إذ لولا وجود تقصير في البحث والدراسة لما واجهت العسر.

8 - كما أن هذا يدعو الإنسان إلى أن لا يرى نفسه مقهوراً ومسلوب الإرادة، وعليه أن ينتظر ما تأتي به المقادير القاهرة، بل عليه أن يبحث عن المخارج، وأن يرفع الحجب.

القاعدة هي الأساس:

وفي جميع الأحوال نقول:

إن هذه القاعدة ليست مجرد فكرة مجردة، لا أثر لها في الواقع العملي. بل قد ظهرت لها تجليات كثيرة، قد لا يمكن حصرها، بل لعل أكثر الناس لو تأملوا في الأمور لوجدوا لها مفردات كثيرة مرت بهم في حياتهم..

والقاعدة إذا كانت سنة جارية وثابتة لا تغيرها العصور والدهور، فإن تقريرها مع التشديد في التأكيد عليها، وتقديم بعض منطبقاتها في أربع آيات سابقة يعطي اليقين، ويزيل الريب، ويوجد الدوافع لمواصلة الطريق باندفاع أقوى، وتصميم أشد، ويربط على القلوب، ويشحذ العزائم، ويثير الحماس.. بخلاف ما لو بين للناس مجرد وجود اليسر بدون تأكيد وبدون أن يشير إلى أنه سنة. فإن الموجود قد يتلاشى، ولا شيء يضمن بقاءه أو تكرره. أما إذا كان سنة مؤكدة، فإن الأمر يختلف كثيراً.

لأن القاعدة لا تستثني أحداً، وقد مارسها حتى الأنبياء، وعلى رأسهم محمد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد ابتلي إبراهيم «عليه السلام» بنار نمرود، وبذبح ولده، وابتلي يونس «عليه السلام» بالمكث في بطن الحوت، وابتلي موسى «عليه السلام» بفرعون، وابتلي عيسى «عليه السلام» باليهود.. وهلم جرا.

وأما نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» فهو القائل: «ما أوذي نبي بمثل (أوكما) أوذيت»، فإن التحدي الذي يواجهه كان هائلاً وعظيماً، لأنه تحدٍّ من قومه وعشيرته، وأقرب الناس إليه الذين عاش معهم، ونشأ بينهم. وقد واجهوه بكل أنواع الأذى، فرد كيدهم، ونصره الله تعالى عليهم. وكان يرى اليسر يخرج من بطن العسر الذي

يواجهه.

فمثلاً: إذا اتهموه بأنه مجنون، فإنه كان يأتي إلى الناس في كل قبيلة على حدة، حين كانوا يقدمون إلى مكة في المواسم. فيكلم تلك القبيلة، ويرى الناس رجاحة عقله، وسلامة منطقه.. فتكون هذه الرؤية، وتلك التهمة سبباً في تكوين قناعة لدى هذه القبيلة بمظلوميته «صلى الله عليه وآله» وبغيهم عليه، وصدقه وكذبهم..

فهم وإن لم يصدقوه في بادئ الأمر، ولكن اجتماعه معهم قد كان البذرة التي ستنبت في قلوبهم، وتتنامى وتكبر في وجدانهم على مر الزمن.

وهكذا يقال في قول أعدائه: إنه ساحر.. فإنه حين يعرض ما جاء به على الناس، فإنهم سيدركون الفرق بين هذا النور الذي جاءهم به وبين تلك الفرية التي يوصم بها، وإذا لم يؤمنوا له في تلك الساعة خوفاً أو ترقباً، أو بهدف التروي في الأمر. فإن هذه البذرة سوف تؤتي أكلها في الوقت المناسب.

وإذا قيل عنه: إنه قاطع للرحم، فإن سياساته في صلة رحمه كانت تكذب ذلك.

وحين يتهم: بأنه قد شتت كلمة الناس.. فإن تاريخه، وكل ما يصدر عنه يشهد بخلاف ذلك.

وحين يقال عنه: إنه اعتدى عليهم وحاربهم، أو غدر بهم، أو نكث عهدهم، فإن الوقائع تثبت للناس عكس ذلك.

وهكذا يقال في كل أمر آخر.. فإن يسره المناسب له، والذي يسقط ذلك العسر يأتي معه، وربما ولد منه بصورة غير متوقعة..

وقبل أن نرهق القارئ الكريم في بيان ما يدخل في هذا النطاق نود التوقف عند بعض دلالات الكلام الذي حمل إلينا هذه القاعدة، فنقول:

المزيد من التأكيد:

تضمنت هاتان الجملتان: **(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)** تأكيدات عديدة، فليلاحظ ما يلي:

1 - إن الجملة إسمية، وإسميتها تشير إلى الثبات والدوام، فهي ليست حدثاً متجدداً، قد يظن أن تجدده يحتاج إلى علل توجب تجدده، وحدوثه مرة بعد أخرى، كما هو حال كل حدثٍ يعبر عنه بالجمل الفعلية الدالة على الحدث المقترن بزمان ماض، أو حاضر، أو مستقبل.

2 - إن الجملة قد بدأت بكلمة **(إنَّ)** بتشديد النون، فهي تأكيد مضاعف، لأن النون إذا كانت ساكنة، فهي أيضاً تدل على التأكيد، فإذا شددت النون، فكأنه يشير إلى الإصرار على هذا التأكيد، وتأكيد صحته مرة بعد أخرى.

3 - كما أن تكرار الجملة مرة ثانية يدل على المزيد من الإصرار والتأكيد.

4 - فإذا أضيف إلى ذلك ذكر ما يصلح ان يكون شاهداً على وقوع المضمون، فإن الاستدلال يزيد الأمر ثبوتاً، ويؤكده أيضاً.

5 - فإذا رتب عليه القائل آثاراً عملية، وجعله منطلقاً ومستنداً لها، فإن نفس هذا الاعتماد هو بمثابة تأكيد جديد.

6 - وهناك تأكيد آخر يستفاد من نفس ذكر الخصوصيات والتفاصيل لذلك الأمر الذي يتحدث عنه، فإن هذا يدل أيضاً على أن الأمر واقع لا محالة، إذ لو كان مجرد خبر عن أمر قد يقع وقد لا يقع، فإن هذا الخبر إن جاء عن المعصوم، فإنه يكون إخباراً عن المقتضيات، مع السكوت عن حصول موانع وعدم حصولها.. فإن السنن تقتضي مثلاً أن ينبت الزرع فيخبر عن ذلك، ولكنه لا يخبر عن أن فلاناً ينوي إحراق هذا الزرع، وسيفعل ذلك. ولكنه لو ذكر أيضاً: أن محصول الزرع سوف يباع في السوق الفلاني بالقيمة الفلانية، فإننا نتيقن بأن المعصوم يخبر عن العلة التامة. وأن صاحب هذا الزرع سيحصل على نتيجة زرعه وعلى ثمنه بلا ريب.

فظهر: أن المعصوم إذا أخبر عما يكون فيه البداء، فلا يُعلم إن كان يقع أو لا يقع، فلا مجال لوصف حالته حين يقع، لأن أصل الوقوع يكون مشكوكاً فيه. أما إذا ذكر الجزئيات والتفاصيل، فهو قرينة على أنه لن يكون في معرض البداء.

ما فائدة «مع» و «أل»؟!:

وقد يسأل: لماذا قال تعالى: **(الْعُسْرِ)** مع «ال» التعريف، ولم

يقل: إن مع عسرٍ يسراً؟! وكذا لماذا حذف كلمة «ال» من كلمة اليسر، فقال: **(يُسْرًا)**، ولم يقل: «اليسر»؟!

وقد يقال في الجواب: إن من فوائد كلمة «مع» والألف واللام في كلمة «عسر» ما يلي:

1 ـ دلالتها على أن العسر حاضر وموجود بالفعل، وأن العراقيل والمتاعب مشاهدة وملموسة، وظاهرة. وكأنَّ اللام هنا هي للعهد الذهني.. بملاحظة وضوح وتمثل خطورة المهمة التي كان رسول الله بصدد إنجازها.

أما اليسر، فليس وجوده ظاهراً ولا مشاهداً لنا، ولذلك حذف كلمة «ال» من كلمة يسر، ليدلنا على ذلك.

وبعبارة أخرى: كلمة **(الْعُسْرِ)** تشير إلى معلومية وجوده وحضوره لدينا، وظهوره حتى كأننا نراه.

أما كلمة **(يُسْرًا)**، فتدل على أمرين:

أحدهما: وجود يسر، ولكنه غير مشاهد، ولا ظاهر، ولا معلوم تفصيلاً، وإن كنا نعرف بأصل وجوده إجمالاً، ولكنه وجود مبهم لا نستطيع تحديده، ولا معرفة نوعه، ولا مكانه، ولا حجمه ولا شكله.. ولأجل هذا الجهل، جاء به بصيغة التنكير.

الثاني: إن اليسرالذي يخبرنا عنه هو يسر فعال ومؤثر، وقادر على إزالة العسر، وليس محفوفاً بأي مانع، فإن رأينا يسراً محفوفاً

بموانع من الاستفادة منه، فإما أن نتوقع زوال الموانع، فإن أصبنا فبها، وإلا فلابد أن يكون هناك يسر آخر مخفي، وسيظهر في الموقع المناسب.

وهذا من شأنه أن يبعث الطمأنينة في نفس من واجه العسر. ويدعوه للثقة بالمستقبل، وإلى معاودة المحاولة، وإلى إعادة النظر، والتأمل والتدبر.

2 ـ لو أنه تعالى قال: سيكون وسيأتي اليسر بعد العسر، فقد يفهم منه أن اليسر غير موجود بالفعل، وهذا وعد به، فقد تستجد ظروف تدعو إلى صرف النظر عن الوفاء بهذا الوعد، ولو لأجل عقوبة الموعود على خطأ متوقع منه.. أو لأن الخطأ نفسه قد جعل الوفاء غير عملي، أو غير ذي فائدة، أي أنه وعد مشروط بعدم إيجاد الموعود موانعَ من الوفاء بالوعد، ولو على قاعدة البداء.

3 ـ لو وضعت الألف واللام في كلمة اليسر، لتصبح موافقة لكلمة العسر، ويجري الكلام على نسقٍ واحدٍ، فقد يفهم من ذلك: أن هذا اليسر لا بد أن يرى، ويشاهد كما يشاهد العسر نفسه كما تقدم، فإذا تأمل وفكر في الأمر، ولم ير هذا اليسر الذي يقال له: إنه حاضر، فقد يرتاب في صحة ما يقال له، ويعتبره قولاً فارغاً عن المضمون، ومجرد تسلية كلامية، لا واقع وراءها.

ولكنه إذا أخبره أنه موجود بالفعل، ولكنه يسر خفي، فإن الإنسان إذا علم أو رأى الشيء متجسداً أمام عينيه سكنت نفسه، واطمأنت

على قاعدة: **(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**[1].

أما الأمور الغائبة عن الحس، فإن الحماس إليها يكون أقل.

4 - إنما قلنا: إن الألف واللام للعهد الذهني، ولم نصرح بأنها تفيد التكرار والدوام، لدخولها على جنس العسر، لأن ذهن السامع ينصرف إلى هذا العسر العظيم الذي يواجهه، وهو الذي يشغل باله، فالعسر الحاضر هو الأبرز في ذهنه، وهو الذي يفتش عن حل له. فعرف الجنس وهو العسر بهذه اللام، لأن ذهنه وإن انصرف إلى عسره الماثل أمامه، ولكنه سيجد في عبارة: **(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)**، التي تتكرر مرتين مع التأكيدات معنى تعريف الجنس أيضاً، وأنه يريد تقرير السنة التي أشرنا إليها فيما سبق لكي يكرس لديه معنى الضابطة والقاعدة التي يكون سريانها في كل فردٍ فردٍ دليلاً قاطعاً على أن عسره سينتهي إلى يسر وفرج.

وليكن هذا الإشراب والتمازج بين العهد الذهني، وبين معنى التكرار المستفاد من تعريف الجنس، وببركة التأكيدات الكثيرة التي يستفاد منها معنى السنة الثابتة والمتكررة..

إن استعمال هذا النوع من البيان الذي يستدرج الذهن ليخرجه من دائرة هذا الفرد إلى الدائرة العامة، فيحولها إلى قاعدة يقينية، ثم يعود

---

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

الذهن من جديد بها إلى ذلك الفرد، وهو عسره الخاص الذي لا يزال يختزنه، ليجعله مشمولاً لنفس هذه القاعدة، ليتخلص من كابوسه ببركة هذا الإكسير الذي يحوله هو نفسه إلى يسر، لأن السنة الجارية قادرة على إزالة ذلك العسر باليسر الذي قررت السنة أنه كامن فيه.

سياق الآيات بنظرة أخرى:

ويمكن تقرير هذه الآيات المباركة بنحو آخر: بأن تكون الآيات الأربع الأولى من قوله: **(أَلَمْ نَشْرَحْ)** إلى قوله: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)** ناظرة إلى الماضي ليجعل هذا الماضي مرتكزاً ومنطلقاً لمعالجة الحالة الحاضرة، وشاهداً على صحة القاعدة التي تقرر الانطلاق منها. والتي تقوم على أن كل عسر معه يسر، وهي القاعدة التي يجب أن تتحكم بالحالة الحاضرة وتهمين عليها. ويكون الانطلاق منها في الموقف من كل مشكلة تشبهها.

وعلى أساس هذا اليقين المستند إلى القاعدة والسنة المؤكدة والجارية في المخلوقات، يتم الانطلاق نحو المستقبل، بعد حل هذه المشكلات الحاضرة، وتبدل العسر باليسر.

وليكون الإحباط واليأس والخيبة القاتلة هو نصيب الآخرين الذين يضعون العراقيل أمام جهود الأنبياء والصالحين.

وهو ما عبرت عنه الآيتان الأخيرتان: **(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)** كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

تنكير اليسر:

ويمكن أن نستفيد من تنكير كلمة **(يُسْرًا)**: معالجة توهم أن يكون طول الزمان على هيمنة العسر يعني زوال اليسر وتلاشيه. وهذه المعالجة تتلخص بما يلي:

ربما يعني هذا التنكير أموراً يمكن نشير إلى بعضها فيما يلي:

أولاً: إن هذا اليسر قد يكون له أنواع مختلفة ومتنوعة، تكون كامنة في مواضع خفية. ولعل هذا التنوع والاختلاف في اليسر وفي مظاهره يكون بنحو أو بآخر من موجبات إمعانه في الخفاء أيضاً.

ثانياً: قد يكون لامتداد الزمان وتقلب الأحوال تأثير في الأولويات التي توجب التبدل في أنواع اليسر، بحيث تجعل بعض أنواعه أقرب إلى التأثير في إزالة العسر في هذا الزمان بعد أن كان الأقرب إلى التأثير في إزالته بعض الأنواع الأخرى منه في أزمنة سبقت أو ستأتي.

وبعبارة أخرى: قد يكون اليسر المؤثر في هذا الزمان غير اليسر الذي كان مؤثراً في التغلب على العسر في الزمان السابق. فإذا لم يستطع الإنسان كشف ذلك اليسر في ذلك الزمان، فإنه قد يصبح قادراً على الكشف والاستفادة من اليسر الذي أصبح أكثر ظهوراً وأشد تأثيراً في الزمان اللاحق.

فتنكير اليسر يدعو إلى البحث عن طبيعته ونوعه، ويفتح الباب

أمام ثقافة واقعية متنوعة ومفيدة.

ثالثاً: إن هذا يفسح المجال لتجدد الأمل بالتغلب على كل عسر، بمرور الزمان، لا لتضائله وتلاشيه، لأنك قد تكون عاجزاً عن الاستفادة من هذا اليسر اليوم، ثم يكشف لك مرور الزمن يسراً آخر تستطيع أن تستفيد منه، فيبقى الأمل متجدداً، إن أوصدت أمامك بعض أبوابه، فقد تفتح أمامك أبواب لم تكن تخطر لك على بال.

كما أن هذا يبعث اليأس في نفوس أهل الباطل، ويضطرهم إلى التراجع انصياعاً للأمر الواقع.

رابعاً: إن شعور الإنسان بالحاجة إلى إعادة النظر، وشعوره أيضاً بقصوره عن نيل بعض الأمور الحاضرة لديه، وبحاجته إلى الهداية والدلالة من الله تعالى؛ إن ذلك يصون الإنسان من الغرور، ومن الشعور بالغنى عن الزيادة والتطور، ومن شعوره بعدم الحاجة إلى الاستعانة بالله تعالى، ويكرس الشعور لديه بالضعف والعجز أمام الله تعالى.

فكيف إذا تعاظم غرور البعض بنفسه إلى حد أنه يخطِّئ الله تعالى ويتولى هو سن القوانين والتشريع لنفسه، ويزعم أن القوانين التي يضعها هي الأفضل له من شرع الله تعالى.

بل قد يصل به الأمر إلى حد أنه يضع نفسه في موقع المرشد والمعلم، والذي يحاول أن يملي إرادته عليه تعالى.

فهذه الآيات تعيده إلى التوازن، وتجعله يعرف نفسه بالعجز،

وربه بالقدرة، ونفسه بالضعف، وربه بالقوة، ونفسه بالنقص، وربه بالكمال، ونفسه بالجهل حتى بما هو حاضر لديه، وربه بالعلم والإحاطة بكل شيء..

الفصل السابع:

فَـإِذَا فَـــرَغْتَ فَانْصَـبْ..

بداية:

اختلف المفسرون في المراد بالفراغ في قوله تعالى: **(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)** هل المراد به: الفراغ من الدعوة؟! أو من الجهاد؟! أو من إبلاغ الأحكام والشرائع، وسائر الحقائق الدينية؟! أو من شؤون الدنيا؟! أو غير ذلك؟!

غير أن ما أريد أن أعرضه أمام القارئ الكريم هو:

أولاً: إن مما لا شك فيه أنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن لينشغل بالدنيا عن الله تعالى، وعن عبادته، وطلب رضاه.

ثانياً: إنه «صلى الله عليه وآله» حين كان يمارس شؤون الدنيا، فإنه كان يحوِّل كل تلك الشؤون، والأعمال إلى عبادات وطاعات، فهو يرى رضا الله، ويتذكر صفاته تعالى في كل شيء.

ثالثاً: إن سياق الآيات يدلنا على أن المراد: أنك إذا فرغت من هذا العُسْر، وقمت بما أوكله الله تعالى إليك من مهمات، وحُلَّت أمامك المشكلات، ودُلل أمامك العسير، فعليك أن تبذل جهدك إلى حد النصب والتعب، لتهيئة الأمور لحفظ الحق، وحفظ ثمرات هذا الجهاد العظيم، واستثمار هذا الجهد في الدنيا سعادة ورضى، وفي الآخرة

تنعماً في الجنان، ونيلاً لمراتب الزلفى والرضوان، فإن هذا الاستثمار يحتاج إلى المزيد من التعب والجهد، والتخطيط الدقيق، والإعداد الصحيح.

فالمراد بالفراغ: ليس مقابل الامتلاء، أو مقابل الاشتغال. فليس المراد بالفراغ: إذا فرغت من الجهاد، فافرغ للعبادة، ولا غير ذلك من وجوه ذكرها المفسرون كما سنرى.

بل المراد الفراغ من هذا الأمر العسير، والتغلب على المشكلات، فإذا حصل ذلك، فانصرف وتفرغ وهيئ نفسك، واقصد، وبادر، وتحمل المسؤولية، وابذل الجهد إلى حد النصب في الأمر الأهم والأعظم، والأولى بالاهتمام!!

فاء التفريع لماذا؟!:

فبعد هذا البيان الإجمالي نحاول الوقوف عند دلالات الكلمات المباركة، فنقول:

بالنسبة للفاء في قوله: **(فَإِذَا)**: قد ظهر بما تقدم: أن الآيات المتقدمة، ولاسيما قوله تعالى: **(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)** قد وطأت ومهدت لقوله تعالى: **(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)**.

فكأنه تعالى يقول لنبيه «صلى الله عليه وآله»: إن الأمر مهما كان خطيراً وعظيماً، وعسيراً وصعباً، فإنه يحمل معه ما يذلل

صعوبته، ويدفع خطورته مهما بلغت.

ويكون أمر الله تعالى لك بالإقدام عليه، والتصدي له دليلاً على أنه في حدود قدرتك وطاقتك، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.. وقد بيَّن تعالى لك: أن كل عسير يحمل معه مفاتيح حلّه، فما عليك إلا أن تستفيد منها، فتحركها بصورة صحيحة وسليمة لينفتح باب الفرج.

وهذا يوضح لنا سبب تفريع هاتين الآيتين على سابقتيهما بالفاء، فلو أنه أبدلها بالواو لفهم أن هاتين الآيتين قد جاءتا لتقرير معانٍ جديدة ومستأنفة، ولا ربط لها بما سبقها، وإنما جمع بينهما البيان الكلامي. وما أكثر ما تبين الأمور المختلفة في خطاب واحد، فيقول الأب لابنه: أطع أمك، وأوصل هذا الكتاب إلى فلان، ولا تنس أن تستيقظ لصلاة الصبح و.. و..

(فَإِذَا):

أما فيما يرتبط بكلمة «إذا» في قوله تعالى: **(فَإِذَا فَرَغْتَ)** فهي تدل ـ بمقتضى الشرط ـ على حتمية ويقينية حصول الجواب للشرط عند حصول فعله، فلابد حين حصول الشرط أن يبذل جهده في تحصيل المطلوب إلى أن يحصل النصب، ويظهر التعب. وهي أيضاً تفيد اليقين بحصول الفعل الذي هو الفراغ.

ولو قال: «فإن فرغت» لم يفهم منها أن ثمة يقيناً بحصول ذلك. ليكون هناك جزم بالحكم بالنصب والتعب.

(فَانْصَبْ):

1 ـ إن الله تعالى قد أمر بالنصب وأراد ملزومه، أي اعمل العمل الذي يلزمه النصب والتعب.

2 ـ المراد بالنصب الذي أمر الله تعالى به رسوله بصورة حتمية وجازمة: ليس مطلق التعب، بل تعب خاص. لأن كلمة «انصب» بفتح الصاد. فعل أمر.

ويحتمل فيها: أن تكون فعل أمر من نَصَبَ ـ بفتح الصاد ـ.

كما يمكن أن تكون من : نَصِبَ بكسر الصاد.

وفي كلتا الحالتين يكون المعنى: ابذل جهدك واتعب حتى يظهر أثر التعب والإرهاق عليك، فيبدو على هيئتك، ووجهك، وفي سكونك وحركتك.

بماذا ينصب رسول الله ﷺ ؟!:

ولم تذكر الآية المباركة هذا الأمر الذي أمر الله تعالى نبيه أن يبذل الجهد فيه إلى الحد الذي يظهر التعب فيه على هيئته، وسائر أحواله.. ولماذا لم يصرح به له؟!

ونجيب:

بأن سياق الآيات من بداية هذه السورة إلى نهايتها يدل على أن الله تعالى يمهد لأمر مهم، وعظيم وخطير.. وكأنه تعالى يريد تسهيل

الأمر وتهوينه على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فهو تعالى يمتن على رسوله بأمور عظيمة وجليلة صنعها له، ويوردها بصيغة السؤال التقريري، لكي يستحضرها «صلى الله عليه وآله» أمامه، وليتأمل بها، فيشكل له مبادئ إقناعية بأن ما يسعى إليه «صلى الله عليه وآله» ليس بعيد المنال، وأن ما يواجهه من مصاعب كبيرة ليس مستعصياً على الحل، لأنه ثمة سُنَّةٌ فاعلة ومؤثرة تتحكم في هذا الكون الرحيب، مفادها أن كل عسر يحمل معه يسراً موجوداً فعلاً في داخله، وإن كان لا يظهر للناس، ولكنه موجود بلا ريب. وقد أكدته الآيات بتأكيدات كثيرة تصل إلى سبعة أو ثمانية.

وقلنا أيضاً: إن هذا اليسر قد يكون في أكثر من اتجاه، وأكثر من موقع. وقد يتعدد ويتحول ويتبدل بحسب الظروف والأحوال.

فتفسير هذه الآية هنا بأن المراد فإذا فرغت من شغلك وجهادك للمشركين، ومن عملك في الدعوة، فاتعب نفسك في صلاتك وعبادة ربك ليس دقيقاً.

أولاً: لأنه لم يصرح بالأمر الذي يجب أن يتعب فيه إلى حد تبدو فيه آثار التعب ظاهرة على حاله وهيأته، فدلنا ذلك على أن التصريح به مضر فيه، أو مفسد له، فأي محذور في التصريح بإظهار العبادة، أو بالجهاد مثلاً؟!

وأي إفساد أو تضييع يحصل في التصريح بالصلاة أو بالعبادة؟!

وهل يكون إظهار كثرة الصلاة من موجبات عدوان الناس عليه

«صلى الله عليه وآله» أو مبادرتهم إلى منعه «صلى الله عليه وآله»؟! أم ماذا؟!

إن الشيء الذي يواجهه قومه بالرفض ويعملون على إفساده هو ما يرونه مضراً بمصالحهم، وهو ولاية علي «عليه السلام» لا غير، وقد صرح الإمام الصادق «عليه السلام» ـ كما في الكافي ـ بأن اسم علي لو ذكر في القرآن لحرَّفوه، فراجع[1].

وقد بذل معاوية مئات الألوف من الدراهم لسمرة بن جندب ليضع الحديث المكذوب على لسان الرسول «صلى الله عليه وآله»: أن آية: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)**[2] نزلت في علي «عليه السلام».

---

(1) راجع: الكافي ج1 ص287 و 288 والتفسير الصافي ج1 ص462 وج4 ص188 وج6 ص43 عنه، وعن العياشي، ومرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج3 ص249 والبرهان (ط مؤسسة البعثة ـ قم) ج2 ص105 وج4 ص443 ونور الثقلين ج1 ص502 وج4 ص274 وتفسير فرات ص111 وكنز الدقائق ج3 ص441 و442 و (مؤسسة النشر الإسلامي) ج2 ص497 وشرح أصول الكافي ج6 ص109 وبحار الأنوار ج35 ص211 وجامع أحاديث الشيعة ج1 ص187 وتفسير الميزان ج4 ص411 وغاية المرام ج2 ص352 وج3 ص110 و 193.

(2) الآية 204 من سورة البقرة.

وأن آية: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)**[1] قد نزلت في ابن ملجم «لعنه الله»، ففعل ذلك لقاء أربع مئة ألف درهم[2].

ثانياً: إن النبي «صلى الله عليه وآله» كان عابداً لربه في جميع أحواله، وسائر أشغاله، فهو يعبد الله في جهاده، بل الجهاد من أعظم العبادات، ويعبده في تعليم الناس دينهم، ويعبده في تحمل أذى المنافقين والمشركين، ويعبده في قضاء حاجات الناس، ويعبده حتى في أكله وشربه ونومه، وفي كل حركة وسكون. وهو في حالة كدح دائم إلى الله تعالى. وهو دائماً معه.

فلا يصح أن يقال: إن المراد بالآية: إذا فرغت من عمل دنيوي فانصرف إلى عبادة ربك. كيف وهو لم ينقطع عنه تعالى لحظة في حياته؟!

آيات سورة المزمل توضح الأمر:

وقد نزلت عليه سورة المزمل قبل سورة ألم نشرح بعدة سور، وقد قال تعالى له فيها: **(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)**[3]. إلى

---

(1) الآية 207 من سورة البقرة.
(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص73.
(3) الآيات 2 - 5 من سورة المزمل.

أن قال تعالى: **(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ..)**[1].

ولعل هذه الآيات تتوافق في مضامينها مع المضامين التي في سورة ألم نشرح، لأن المقصود بقوله تعالى: **(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)**[2] بعد قوله تعالى: **(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)**[3] ليس نزول الوحي، أو بعثته «صلى الله عليه وآله»، لأنه «صلى الله عليه وآله» كان قد بعث وانتهى الأمر، وكان الوحي ينزل عليه.

وليس المقصود سنلقي عليك الشرائع والتكاليف، لأن ذلك مفروغ عنه. فإن رسوليته تعني أن هناك شريعة، وتكاليف، ومسؤوليات.

بل المقصود بالقول الثقيل الذي يأمره الله تعالى بالتهيؤ له روحياً، هو ذلك الأمر الذي سيواجهه المشركون، بل الأقربون والأبعدون بالرفض والعناد، والاستكبار. والذي كان أصعب عليهم من تركهم عبادة أصنامهم، والقبول بعبادة الله الواحد الأحد. والذي كانوا على استعداد ليتفادوه بأموالهم، وبأبنائهم، وبكل شيء غال عليهم. ألا وهو ولاية أمير المؤمنين «عليه السلام» التي جهر بها لهم يوم إنذار عشيرته

---

(1) الآية 20 من سورة المزمل.

(2) الآية 5 من سورة المزمل.

(3) الآية 2 من سورة المزمل.

الأقربين.. فنزل هذا الإعلان على أقرب الناس إليه نزول الصاعقة، فما بالك بالأبعدين عنه؟!

لقد كان يمكن أن يقبلوا بترك عبادة الأصنام، وأن يقبلوا بنبوة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأن يجعلوا الرسول ملكاً عليهم، وأن يزوجوه من شاء من بناتهم، وأن يعطوه ما شاء من الأموال.. وغير ذلك.. ولكن كيف يمكن لهم أن يتصوروا ولاية علي «عليه السلام» عليهم، وتكون ولايته كولاية الله ورسوله.. لاسيما وهو لا يزال صغيراً لم يتجاوز عمره الثلاث عشرة سنة، ويأبى لهم استكبارهم وغرورهم أن يقبلوا بأمر كهذا؟!

فكيف إذا كانت هذه الولاية له بعد وفاة رسول الله«صلى الله عليه وآله» تعني بقاء دينه «صلى الله عليه وآله»، واستمرار دعوته، التي يرون أنها تساوي بين السيد منهم وعبده، والتي لو استمرت، فإن أملهم بعودة الأمور إلى سابق عهدها سيتلاشى؟!

وهذا المعنى هو القول الثقيل الذي ورد في سورة المزمل، وهو يتوافق ـ كما قلنا ـ مع سياق ومضامين سورة «ألم نشرح»، فقد دلت آياتها على أنه «صلى الله عليه وآله» يتصدى لمهمة كبرى، تحتاج إلى شرح الصدر، وإلى وضع الوزر والثقل الذي أنقض ظهره. وإلى رفع ذكره وفق الشرح المتقدم لهذه الآيات المباركة.

وقد حصل على ذلك كله من الله. لكن قد بقي هناك أمر ثقيل يعسر عليه القيام به، بسبب ما سوف يواجهه من تحدٍّ هائل وخطير،

يحفظ جهوده، وجهود جميع الأنبياء والمرسلين، والأوصياء والشهداء والصالحين، ويبقي دعوتهم، و.. و..

فجاءت سورة ألم نشرح لتطمئنه إلى أن هذا العسر الذي يواجهه يحمل معه يسراً يعينه عليه. وهذا جار وفق السنن المودعة في الخلق من أجل صلاح الخلق.

فما دام الأمر كذلك فعليه أن يطمئن إلى النتائج، فإذا حضر وقت الإقدام على إنجاز هذا الأمر الذي يحمل همه، ويخشى من الطاغين والجبارين، ومن القريب والبعيد، فليقدم عليه، وليتحمل متاعبه، وليواجه مصاعبه التي سوف تظهر آثارها عليه، وعلى كل من يلوذ به، حيث سيلحقهم أعظم الكرب والأذى بسبب هذا الأمر، وقد يقتل بسببه حتى خير الخلق بعده، وقد تلاحق ذريته، وكل شيعته ومحبيه بالقتل والتشريد عبر العصور والدهور إلى أن يرث الله الأرض عباده الصالحين..

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) أي إذا حان وقت العمل فبادر إلى هذا الأمر، وتحمل الأذى فيه، فذكر لازمه، وهو ما ينشأ عنه من إرهاق ومشقة يظهر أثرها عليه.. ولم يصرح بالأمر نفسه، لأن وقت التصريح والإعلان لم يحن بعد، وإنما يؤجل التصريح به رفقاً به وبالعباد.

وقد جاء الأمر جازماً وحاسماً، ليدل على أنه حتم من الله لابد

منه، ولا مناص منه عنه.

فوائد الإبهام:

وفي هذا الإبهام المتعمد للأمر الذي هو محط النظر فوائد وعوائد، لأنه بمثابة التهيئة والإعداد النفسي للناس، والذين سوف يتوقعون هذا الأمر الذي جرى التنويه به، وسوف يتساءلون عنه، وستذهب أوهامهم يميناً وشمالاً..

وسيثير المزيد من تشوقهم لمعرفته، ما تصرح به الآيات من أهميته، حتى إنه ليحتاج إلى التدخل الإلهي بشرح صدر رسول الله «صلى الله عليه وآله» له، وشد أزره، ورفع ذكره، واستحضار السنن التاريخية لطمأنته «صلى الله عليه وآله» لنتائج الإقدام عليه.

حتى إذا استبد بهم الفضول لمعرفته، وفاجأهم به رسول الله «صلى الله عليه وآله» في أواخر أيام حياته في يوم غدير خم بدعوته إياهم للبيعة لعلي «عليه السلام»، ولم يتمكنوا من التملص أو التخلص منها، كما فعلوه في منى أو عرفات، حين ضجوا، وصرخوا، وعجوا، ومنعوا النبي «صلى الله عليه وآله» مما أراد..

نعم، إنهم حين حصل ما حصل سيكونون أكثر استعداداً للتعايش مع هذا الواقع المستجد، ولو بمرارة وألم، على قاعدة: مكره أخاك لا بطل.

وذلك لأن شعورهم المتواصل الذي طال أمده، بأهمية هذا الأمر عند الله، وظهر لهم أنه لا مجال للمساومة عليه.. مدعماً بما تقرر في

سنن التكوين التي يصعب مقاومتها.. مع تلك التأكيدات الكثيرة، فإن رفضهم لهذا الأمر سيكون مسكوناً بالشعور بالعجز، أو بالصعوبة البالغة للقضاء عليه.

وهذا يخفف من حدة اندفاعهم للإمعان في مقاومته حتى الرمق الأخير. وسيكتفون باغتنام الفرص للنيل منه، والرضا بما تيسر لهم الحصول عليه..

فهذا التيئيس لهم من إمكان القضاء على هذا الأمر سياسة إلهية ستضطرهم للتعامل معه على أنه في بعض مراتبه أمر واقع.

وقد تجلت هذه السياسة بما تضمنته الآيات التي نزلت بمناسبة يوم الغدير، من تهديد مبطن لهم بالعودة إلى المواجهة معهم في أقصى مداها، وذلك في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)**[1].

وقد ذكرنا بعض ما يرتبط بدلالات هذه الآية في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» في الأجزاء الأخيرة منه..

وفي كتابنا الصحيح من سيرة الإمام علي «عليه السلام».. حين

(1) الآية 67 من سورة المائدة.

تكلمنا عن حديث الغدير.

فكانت مقاومتهم مشوبة بالشعور بالعجز عن القضاء على هذا المشروع الإلهي قضاءً مبرماً.. فلجأوا إلى الإنحناء أمام العاصفة انتظاراً للفرصة السانحة، لاقتناص ما يمكنهم اقتناصه..

فانصب بكسر الصاد تحريف مرفوض:

وأما القول: بأن المراد بقوله: **(فَانْصَبْ)**: انصب علياً خليفة، فنقول في جوابه:

إن كان المراد هو أن كلمة **(فَانْصَبْ)** بنفسها معناها: انصب علياً، فهو غير صحيح، لأن الآية القرآنية قد نزلت بفتح الصاد، لا بكسرها. وكلمة **(فَانْصَبْ)** بفتح الصاد، لا تدل على هذا المعنى إلا على القول بالتحريف.

ولا يمكن قبول أية رواية أو قول يدَّعي التحريف في الآية القرآنية، ولو كان في حدود تغيير حركة حرف في كلمة.. فإن الله تعالى صان كتابه عن هذا. فقال: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[1].

ولا صحة لما يدَّعونه من جواز التصرف بالكلمات تحت اسم القراءات، فإن القرآن واحد نزل من عند الواحد كما جاء في الحديث

(1) الآية 9 من سورة الحجر.

الشريف[1].

فإن كانت كلمة «فانصِب» ـ بكسر الصاد ـ رواية عن إمام معصوم، فهي رواية تفسيرية، تماماً ككلمة «إلى أجل» في رواية ابن عباس في قوله تعالى: **(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ)**[2] إلى أجل، فإنها قد جاءت للتفسير أيضاً، وبعض التفسير للآيات يكون نازلاً من عند الله أيضاً، وإن لم يكن قرآنا، فهو بمثابة الحديث القدسي.

وهذا هو المراد بقوله في بعض الروايات: «هكذا أنزلت»[3]. أي هكذا أنزل تفسيرها من عند الله تعالى.

وإن كان المراد هو ما ذكرناه، من أن الآية قد نزلت بفتح الصاد، ومعنى النصب هو: التعب الظاهر على هيئة الشخص من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فلا مانع من ذلك ولا إشكال.

---

(1) الكافي ج2 ص630 ومرآة العقول ج12 ص520 والبرهان (تفسير) ج1 ص47 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص168 وكنز الدقائق (تفسير) ج2 ص245.

(2) الآية 24 من سورة النساء.

(3) راجع: الأمالي للطوسي ص300 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص301 والعمدة لابن البطريق ص99 وبحار الأنوار ج35 ص57.

إظهار التعب:

وقد دلت الآية المباركة على ضرورة بذل الجهد إلى حد ظهور التعب، بحيث يراه الناس، فإن ظهور هذا التعب على هيئة وحال الرسول «صلى الله عليه وآله» مصلحة للدين. لأن في ظهوره على خصوص الرسول إعلان بأهمية هذا الأمر، وأنه إذا كان حتى الرسول قد أجهد نفسه في هذا الأمر، فلا يجوز لأحد سواه أن يتهاون فيه. فظهور التعب على الرسول «صلى الله عليه وآله» كان سياسة إلهية مطلوبة في هذا الأمر بالخصوص.

ولو أنه تعالى قد صرح بالأمر الذي يريده من رسوله، فقد تضيع بعض الفوائد. لاسيما وأن المطلوب هو أن يسجل للأجيال مدى الجهد الذي يريد الله من رسوله أن يبذله.. وأن يكون ظهور التعب والجهد على الرسول محركاً للمشاعر، مثيراً للانفعالات بصورة أشد. أما التصريح بالمراد فقد يدعى أنه مجرد كلمة قيلت، وطلب سجل، ثم طرأ ما أوجب العدول عنه.

أما بذل أقصى الجهد على النحو الذي يشير إليه بكلمة **(فَانْصَبْ)**. فهو أبلغ من عشرات الأقوال والتصريحات الكلامية، وأدل على أنه إذا كان الأمر بهذه الخطورة، فإن التخلي عنه أمر غير متصور وغير معقول..

وسوف تتناقل الأجيال هذا الأمر، وتقف عنده، ولن يكون من السهل مرورها عليه مرور الكرام، أو قبول دعوى التخلي عنه لتبدل

الظروف، فإنه تعالى إذا كان يعلم بتبدل الظروف، بحيث توجب تغير القرار تبعاً لها، فلماذا يأمر بهذا الجهد المضني، وبهذا الإصرار الشديد منذ بعثته، وإلى آخر حياته «صلى الله عليه وآله»، ولماذا يريد لنبيه أن يواجه كل هذا الأذى في أمر عارض، لا أهمية له؟!

إن هذا الجهد يدل على أن هذا الأمر في غاية الأهمية، ولا مجال للتنازل عنه، أو المساومة فيه..

الفصل الثامن:

وَإِلَــى رَبِّــكَ فارْغَــبْ..

الرغبة إلى الله:

ثم جاء قوله تعالى: **(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)** ليؤكد هذا الذي ذكرناه. ولتوضيح ما نرمي إليه لابد لنا من بيان ما ألمحت إليه المداليل اللفظية فيها. وذلك على النحو التالي:

إمامة، أم خلافة؟!:

إن أول سؤال يحتاج إلى جواب هو: هل يريد تعالى مجرد إيصال علي «عليه السلام» إلى مقام الخلافة بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا شيء أكثر من ذلك.. لتكون النتيجة هي: أن إقصاء علي «عليه السلام» معناه ضياع كل شيء بالنسبة لعلي، وخروجه «عليه السلام» من المشروع الإلهي بصورة حاسمة ونهائية؟!

أم أن المطلوب شيء آخر أكبر من ذلك، وتكون الخلافة بعض حالاته وشؤونه، فالحيلولة بينه «عليه السلام» وبين الخلافة، وإن كانت مخالفة جسيمة، ولكنها لا تعني سقوط المشروع الإلهي الذي يكون علي «عليه السلام» محوره ومداره، وبه يكون مساره، وهو

رائده، وبيده مشعله ومناره؟!

ونجيب:

بأن هذا الثاني هو المطلوب. فإن المشروع الإلهي هو تكريس مقام الإمامة والولاية لأمير المؤمنين «عليه السلام»، والإمامة لا تبطل، ولا يزول تأثيرها، ولا تنتقض أهدافها باغتصاب بعض صلاحياتها من صاحبها.

فإن الإمامة ليست هي الخلافة والسلطة، بل السلطة بعض شؤون الإمام «عليه السلام». ومن شؤون الإمام الحكم بين الناس بالحق.. ومن شؤونه أيضاً مرجعيته الشرعية والفكرية في مختلف العلوم والفنون، والحكمة والأدب والمعارف، واكتناه الأسرار والغيوب التي أذن الله لخلَّص أوليائه والأوحديين من أصفيائه بالوقوف عليها.. والقيام بنفس المهام التي كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقوم بها في مختلف الأحوال والمجال، وللإمام خصائص النبي وحالاته باستثناء الوحي، وللإمام مقام الشاهدية، ويعرض على الإمام أعمال الخلائق.

وبالاعتقاد بالامامة تقبل الأعمال، وتنال الجنة، وتكون النجاة من النار، وقد ورد أنه لا يدخل الجنة إلا من كان معه جواز من علي

«عليه السلام»[1].

وضياع مقام الإمامة كما صرحت به آية: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..)** يوازي ضياع الرسالة كلها، بل كل شيء في هذا الدين يبقى ناقصاً بدونها، وغير ذي فائدة أو أثر، فهي تقول: **(وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)**.

ونحن نعلم: أن هذه الآية قد نزلت قبل وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بسبعين يوماً، وكان «صلى الله عليه وآله» قد بلَّغ عقائد هذا الدين وشرائعه وأحكامه، وحقائقه، وأخلاقه وقيمه. وكل ما يرتبط به، ولم يبق سوى تأكيد مقام الإمامة بأخذ البيعة من الناس للإمام، وتكريس إقرارهم بها من خلال ذلك.

وبالإمامة يبقى الدين الذي جاء به الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وبدونها يتلاشى ويندثر..

---

(1) راجع: الأمالي للطوسي ص290 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص7 والتحصين لابن طاووس ص558 و 559 والطرائف لابن طاووس ص82 والمحتضر للحلي ص170 وبحار الأنوار ج8 ص68 وج39 ص196 و 202 و 234 وكشف الغمة ج2 ص24 ونهج الإيمان ص506 ومستدرك سفينة البحار ج6 ص264 وذكر أخبار أصبهان ج1 ص342 وبشارة المصطفى ص227 و 309 ونور الثقلين (تفسير) ج4 ص401 وينابيع المودة ج1 ص338 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج7 ص119 عن جملة من المصادر.

وللإمامة مدخلية في مختلف شؤون الحياة. حتى في رزق العباد، وانتظام أمورهم، وفي تربيتهم، وفي بناء مشاعرهم وأحاسيسهم، وشعورهم بالسكينة والأمن، بل للإمامة تأثير على سائر الموجودات.

أما الخلافة، فإن اغتصابها وضياعها لا يعني ضياع الإمامة، ولا يوجب ضياع الدين.. كيف وقد بقي الدين ببقاء أهله، والقيمين عليه، منذ آدم وإلى زمن النبي «صلى الله عليه وآله»!! مع أن أكثر الأنبياء والرسل كانوا معزولين عن الحكم، وكان قومهم يكذبونهم، ويؤذونهم، وقد قتلوا الكثيرين منهم.

فالإمامة ليست جزئيةً من جزئيات هذا الدين، بل هي الدم الذي يجري في جميع عروقه، والروح التي توقظ حقائقه وشرائعه، وتحرك كل شيء فيه.. وقد قال الإمام الرضا «عليه السلام» في نيشابور: «كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي».

ثم عقب «عليه السلام» ذلك بقوله: «بشروطها، وأنا من شروطها»[1].

---

(1) راجع: نقله في مجلة مدينة العلم، (السنة الأولى) ص415 عن صاحب تاريخ نيسابور، وعن المناوي في شرح الجامع الصغير، وهو أيضاً في الصواعق المحرقة ص 122 وحلية الأولياء 3 ص192 وعيون أخبار

فدلنا ذلك على أن التوحيد بدون أن ينضم إليه الاعتراف بإمامة الرضا «عليه السلام» يبقى ناقصاً.. ولا يصبح حصناً، ولا من موجبات الأمن من العذاب، إلا إذا انضمت إليه إمامة الرضا «عليه السلام»، فما بالك بإمامة علي «عليه السلام»؟!

وقد قلنا: إن جميع أعمال العباد ـ جوارحية كانت أو جوانحية ـ لا تقبل بدون الولاية.

الرضا ج2 ص135و (ط مؤسسة الأعلمي) ج1 ص145 وأمالي الصدوق ص208، وينابيع المودة ص 364 و 385 وقد ذكر قوله «عليه السلام»: وأنا من شروطها، في الموضع الثاني فقط. وبحار الأنوار ج49 ص123 و 126 و 127 ج3 ص7 عن ثواب الأعمال، ومعاني الأخبار، وعيون أخبار الرضا «عليه السلام»، والتوحيد، والفصول المهمة لابن الصباغ ص240 ونور الأبصار ص141 ونقلها في مسند الإمام الرضا ج1 ص43 و 44 عن التوحيد، ومعاني الأخبار، وكشف الغمة ج3 ص98. وهي موجودة في مراجع كثيرة أخرى. لكن يلاحظ: أن بعض هؤلاء قد حذف قوله «عليه السلام»: «بشروطها، وأنا من شروطها»، ولا يخفى السبب في ذلك.

وراجع: التوحيد ص25 وثواب الأعمال للصدوق ص7 ومعاني الأخبار ص371 وروضة الواعظين ص42 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص296 وغوالي اللآلي ج4 ص94 ونور البراهين ج1 ص76 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص235 ومسند الإمام الرضا «عليه السلام» للعطاردي ج1 ص44 وراجع: ينابيع المودة ج3 ص123.

وهكذا يقال في سائر الاعتقادات، وجميع حقائق الدين والإيمان.

وبعد اغتصاب مقام الحاكمية من الإمام أمير المؤمنين لم يحارب «عليه السلام» من أقدم على ذلك، لأن هناك ما هو أهم منها مما يجب حفظه وصيانته، كما أن إمامته «عليه السلام» بقيت مؤثرة وفاعلة. وكذلك إمامة أبنائه من بعده. وبها حفظ الدين، وبقيت شرائعه وأحكامه، وحقائقه.

ويشهد لما نقول: قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[1]. فدلنا بذلك على أن عدم

(1) راجع: الكافي ج1 ص288 ومكاتيب الرسول ج1 ص561 وفي الهامش عن: الحياة السياسية للإمام الحسن «عليه السلام» ص47 وغنية النزوع ص323 وجامع الخلاف والوفاق ص368 و 404 وتذكرة الفقهاء ج5 ص435 و (ط قديمة) ج1 ص254 وج2 ص437 ومختلف الشيعة ج3 ص333 وج6 ص308 و 330 ومجمع البيان (ط مؤسسة الأعلمي) ج2 ص311 وج8 ص165 وتفسير جوامع الجامع ج3 ص70 و 857 وتلخيص الشافي ج4 ص170 ونور الثقلين ج3 ص290 وج4 ص284 والميزان ج4 ص312 والإرشاد للمفيد ج2 ص30 والمسائل الجارودية للمفيد ص35 والمستجاد من الإرشاد للعلامة (المجموعة) ص157 والصراط المستقيم ج2 ص118 وج3 ص130 والمحتضر لابن سليمان الحلي ص179 والتعجب للكراجكي ص129 والفصول المختارة

تسلم زمام الحكم ـ وهو المراد بقوله: أو قعدا ـ لا يضر بمقام الإمامة، ولا يبطله.

لا بد من المعونة الربانية:

ومما تقدم يتضح: أن المطلوب هو تثبيت وترسيخ معنى الإمامة في وجدان الأمة، والتمهيد لتوارث الأجيال إلى يوم القيامة هذه الحقيقة

للمرتضى ص303 وروضة الواعظين ص156 وكفاية الأثر ص38 و 117 والفرق بين الفرق ص25 ودعائم الإسلام ج1 ص37 ومناقب آل أبي طالب ج3 ص143 و 163 والفضائل لابن شاذان ص118 والطرائف لابن طاووس 196 وعوالي اللآلي ج3 ص130 وج4 ص93 ومدينة المعاجز ج2 ص391 وج3 ص290 وبحار الأنوار ج16 ص307 وج21 ص279 وج35 ص266 وج36 ص289 و 325 وج73 ص7 وج37 ص298 و 291 وج44 ص2 و 16 وإعلام الورى ج1 ص407 و 421 وكشف الغمة ج2 ص156 وج2 ص225 و 245 والفصول المهمة لابن الصباغ ج2 ص717 و 732 وفضائل أمير المؤمنين «عليه السلام» لابن عقدة ص168 ونزهة المجالس ج2 ص184 وفي السراج الوهاج للشبراوي الشافعي أنه «صلى الله عليه وآله» قال لهما: أنتما الإمامان، ولأمكما الشفاعة، وغاية المرام ج2 ص243 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج7 ص482 وج19 ص216 و 217 عن أهل البيت لتوفيق علم (ط مطبعة السعادة القاهرة) ص195 وعن الرسالة في نصيحة العامة لابن كرامة البيهقي (النسخة المصورة في مكتبة أمبروزيانا في إيطاليا) ص18 و 67 وينابيع المودة ص445.

الوجدانية، لأن معنى الإمامة في اتساعه وفي امتداده يستوعب مسير ومصير الحياة كلها بجميع أحوالها، وأشكالها، وتفاصيلها، وتحولاتها عبر العصور والدهور.

ويتأكد ذلك بارتباط جميع أعمال وحركات، وفكر وسلوك، واعتقاد ومواقف العباد بالإمامة في كل اتجاه..

وليس الموضوع مجرد بيعة وخلافة، وقد يفي الناس بها، وقد ينكثونها، ولا هو مجرد حكم وسلطة، ولا قضاء بين الناس، وتدبير شؤونهم وإدارة أمورهم، فإن هذا وإن كان مهماً في نفسه، ولا يمكن السماح بالتطاول عليه ـ إلا أنه بالرغم من ذلك تصغير لشأن الإمامة، ومن الفهم الخاطئ لها..

فالشأن الاعتقادي وتكريس معنى الامامة في الأمة هو الأساس، وليس الوصول إلى الحكم، ونيل الخلافة. وقد أظهر الجهد الذي بذله الرسول بما لا يدع مجالاً للشك هذه الحقيقة.

وقد قام «صلى الله عليه وآله» بواجبه، وحقق ما قصد إليه، وهذا هو النجاح، فإن النجاح هو القيام بالواجب كما أمر الله. وليس النجاح هو تحقيق الهدف الأقصى ولو بوسائل غير مشروعة. لا سيما أن هذا الهدف ليس من صنع النبي وحده، بل لابد أن يشاركه في العمل من أجله العباد أنفسهم. فالأمر مرهون باختيارهم وجهدهم أيضاً.

لماذا قال: (وَإِلَى رَبِّكَ)؟!:

ويلاحظ: أنه تعالى لم يقل: اطلب من ربك المعونة بأن يحصل علي «عليه السلام» على الخلافة والحكم. إذ لو طلب منه ذلك كان الأمر دائراً بين حالتين:

إحداهما: أن لا يجيب الله تعالى طلب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وفي هذا تصغير لشأنه «صلى الله عليه وآله»، وإهانة له.

الثانية: أن يجيب طلبه «صلى الله عليه وآله»، وفي هذا محذور من جهتين:

الأولى: أنه يتطلب تدخلاً مباشراً في إرادات الناس، إلى حد القهر والإجبار، وهذا ظلم، وخلاف لسياسة الله تعالى في عباده.

الثانية: إن استعمال هذه الطريقة لا يحقق الغرض المنشود، بل يضيعه ويضر بالمطلوب..

والمطلوب هنا: هو مجرد الالتجاء والابتهال والرغبة إليه تعالى. فمعنى: رغب إليه: ابتهل إليه.

والابتهال: هو الدعاء باخلاص واجتهاد وتضرع.

فالمطلوب إذن أمور ثلاثة:

1 ـ الدعاء بإخلاص.

2 ـ الاجتهاد بالدعاء، بتكثيره، وبذل الجهد في أن يكون جامعاً لكل ما يوجب قبوله.

3 ـ التضرع فيه: أي إظهار الداعي الذلة، والتصاغر أمام الله تعالى..

فالمصلحة تقضي بأن يظهر للناس هذا الجهد، والتضرع والاجتهاد في الدعاء، والإخلاص فيه، لكي يعرف الناس مدى حب الله ورسوله لهذا الأمر، وليس المطلوب هو إيجاد الشيء المطلوب بأي نحو كان.

لماذا ستر هذا المطلوب؟!:

وقد تقدم: أن هذا المطلوب يراد ستره، وان يكون التعامل معه بحيث لا تعطى الفرصة لأهل الباطل للتآمر عليه، وتشويه معنى الإمامة لدى الناس.

وقد نجحت هذه الطريقة في صيانة معنى الإمامة، فإن النبي «صلى الله عليه وآله» قد ابلغ الناس كرات ومرات بإمامة علي «عليه السلام»، وصرَّح الله تعالى بأنه «عليه السلام» أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لكن ما جرى يوم الغدير قد كان مجرد ملامسة معنى الحكومة والخلافة والسلطة. وهي التي كانت تهم بعض الناس وتعنيهم، وهي التي يحاربون ويبذلون جهدهم لأجلها، يريدونها لأنفسهم، ويتنافسون عليها. فبايعوا يوم الغدير لعلي «عليه السلام» ثم نكثوا..

ولكن معنى الإمامة بقي مصوناً إلى حد كبير. ولو أنهم توجهوا

إليه، ورأوا فيه سبباً في حرمانهم من الخلافة والسلطة لسعوا في تهشيمه أو تقويضه.. ولكن الله سلَّم، حيث اقتصر جهدهم، وانحصر إلى حد كبير في اغتصاب الخلافة، بصورة عامة..

ثم إن الله تعالى هيأ الظروف بصورة تدريجية، فتبلور معنى الإمامة في وعي، وفكر ووجدان الناس، من خلال جهد وجهاد الأئمة «عليهم السلام» في توضيح الأمور للأمة، ومن خلال ما أظهره الله تعالى لهم من كرامات، وما ظهر لهم من علوم اختصهم الله تعالى ورسوله بها.

وتجلى بصورة عملية السر الذي دعا إلى أن يكون التعبير بكلمة «ربك» في الآية الكريمة في قوله تعالى: **(وَإِلَى رَبِّكَ)**. ولم يقل: إلى الله مثلاً.. فإن الربوبية تقتضي هذا الرفق في الأمور، والتدرج في استجلاب المنافع، ودفع المضار.

كلمة أخيرة:

وبعد..

فإنني أرجو أن يكون القارئ الكريم قد وجد في ثنايا صفحات هذا الكتاب ما يخفف عنه خيبة أمله، ويسليه عن الوقت الذي أهدره في قراءته؛ فإن الإنسان الحصيف والواعي يرى لعمره قيمة، ولجهده ثمناً، لا يحب أن يستباح من أي كان من الناس، ولو من أقرب الناس إليه، وأعزهم عليه..

وذلك لأن عمره أغلى وأعز ما في الوجود عليه. والتفريط فيه مساوق للتفريط بالحياة، وبالوجود.

ومهما يكن من أمر، فإن رجائي الأكيد هو أن يتحفني بما يراه خللاً، أو خطأً وخطلاً، وسأعتبر هذا منه أفضل هدية وأسناها، وأجملها وأبهاها..

أما طلبي الوحيد منه، فهو أن يدعو لي في مظان الإجابة بالمغفرة والرحمة..

وأسال الله لي وله ولكل المؤمنين الهدى والسداد، والاستقامة والرشاد، وأن يجعلني وإياهم، مع محمد وآله الطاهرين، والشهداء والصالحين. إنه ولي قدير..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين..

عيثا الجبل ـ (عيثا الزط سابقا) لبنان

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

5 شهر رمضان المبارك 1434هـ.ق.

14شهر تموز 2013 م.ش.

الفهرس:

تقديم: 7
الفصل الأول: شأن النزول.. وأمور أخرى.. 7
بداية: 11
سورة واحدة أم سورتان؟!: 11
البسملة جزء من كل سورة: 13
سبب نزول سورة ألم نشرح: 18
حديث شق الصدر: 18
الفصل الثاني: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) 30
بداية: 32
الإستفهام إنكاري أم تقريري؟!: 32
(نَشْرَحْ): 34
بماذا، ولأي شيء؟!: 35
شرح الصدر من أعظم المنح الربانية: 38
لماذا لم يقل: ألم أشرح؟!: 40
(لَكَ): 41
الحكمة تحتاج إلى تعليم إلهي: 44

عودة إلى الإستفهام التقريري: 45
لماذا (نَشْرَحْ)؟!: 46
تسبيب الأسباب: 49
لجهد الرسول أثره أيضاً:..... 50
لا بد من الحفاظ على السنن: 52
تحول النعم المادية إلى روحية أيضاً: 53
(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي): 54
متى بدأت صناعة الله لنبيه؟!:..... 56
لا جبر في شرح الصدر:..... 56
لماذا أشار تعالى إلى السنن؟!: 58
الفصل الثالث: (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) 61
مما تقدم: 63
التوافق بين الماضي والحاضر:..... 64
ثلاثة أمور أساسية:..... 64
التوفيق والتطبيق: 65
لا يكفي القانون ولا الجيوش:..... 67
الفصل الرابع: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) 72
وضع الوزر كيف، وبماذا؟!:..... 74
وضع الوزر لا يعني إزالته:..... 75

(أَنْقَضَ ظَهْرَكَ): 75
لماذا الامتنان؟!: 77
وضع الوزر بولاية علي ×:..... 78
هذا هو الأخطر: 81
من هاهنا أتينا!!:..... 82
واجعل لي وزيراً من أهلي!!:..... 86
فوارق بين علي وهارون: 87
الفصل الخامس: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) 94
بداية: 96
كيف نفهم رفع الذكر؟!: 97
الوسائل بحجم المهمات:..... 98
الوسائل الثلاث:..... 101
لم يقل: كرمناك وعظمناك!!: 106
الفصل السادس: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) 109
لماذا الفاء في (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)؟!:..... 111
البرهان الحسي: 111
أهمية هذه الضابطة: 112
القاعدة هي الأساس: 113

المزيد من التأكيد: 116
ما فائدة «مع» و «أل»؟!: 117
سياق الآيات بنظرة أخرى: 121
تنكير اليسر: 122
الفصل السابع: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) 125
بداية: 127
فاء التفريع لماذا؟!: 128
(فَإِذَا): 129
(فَانْصَبْ): 130
بماذا ينصب رسول الله ﷺ؟!: 130
آيات سورة المزمل توضح الأمر: 133
فوائد الإبهام: 137
فانصب بكسر الصاد تحريف مرفوض: 139
إظهار التعب: 141
الفصل الثامن: (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) 143
الرغبة إلى الله: 145
إمامة، أم خلافة؟!: 145
لابد من المعونة الربانية: 151
لماذا قال: (وَإِلَى رَبِّكَ)؟!: 153

لماذا ستر هذا المطلوب؟!:..... 154

كلمة أخيرة:..... 156

كتب مطبوعة للمؤلف

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام

2 ـ الإعتماد في التقليد والإجتهاد (الجزء الأول تحت الطبع)

3 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

4 ـ ابن عباس وأموال البصرة

5 ـ ابن عربي سنيّ متعصب

6 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

7ـ أحيـوا أمـرنا

8 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

9 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

10 ـ الإمام علي والنبي يوشع ،

11 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

12 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

13 ـ أهل البيت ٨ في آية التطهير

14 ـ أين الإنجيل؟!

15 ـ بحث حول الشفاعة

16 ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

17 ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

18 ـ بنات النبي ′ أم ربائبه؟!

19 ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان

20 ـ تخطيط المدن في الإسلام

21 ـ تفسير سورة ألم نشرح (هذا الكتاب)

22 ـ تفسير سورة الضحى

23 ـ تفسير سورة الفاتحة

24 ـ تفسير سورة الكوثر

25ـ تفسير سورة الماعون

26 ـ تفسير سورة الناس

27 ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)

28 ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات

29 ـ الحاخام المهزوم

30 ـ حديث الإفك

31 ـ حقائق هامة حول القرآن الكريم

32 ـ حقوق الحيوان في الإسلام

33 ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×

34 ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×

35 ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×

36 ـ خسائر الحرب وتعويضاتها

37 ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)

38 ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)

39 ـ دراسة في علامات الظهور

40 ـ دليل المناسبات في الشعر

41 ـ ربائب الرسول ’ «شبهات وردود»

42 ـ رد الشمس لعلي ×

43 ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)

44 ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)

45 ـ زينب ورقية في الشام!!

46 ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي

47 ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)

48 ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية

49 ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور

50 ـ شبهات يهودي

51 ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

52 ـ الصحيح من سيرة الإمام الحسين × (قيد الإعداد)

53 ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)

54 ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ’ (خمسة وثلاثون)

55 ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد

56 ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)

57 ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

58 ـ ظلامة أبي طالب ×

59 ـ ظلامة أم كلثوم

60 ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

61 ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وسحر هاروت وماروت

62 ـ علي × والخوارج (جزءان)

63 ـ الغدير والمعارضون

64 ـ القول الصائب في إثبات الربائب

65ـ كربلاء فوق الشبهات

66ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×

67ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!

68- مأساة الزهراء ÷ (جزءان)

69- ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!

70 - مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (سبعة عشر جزءاً).

71 - مراسم عاشوراء «شبهات وردود»

72 - المسجد الأقصى أين؟!

73 - مقالات ودراسات

74 - منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية

75- المواسم والمراسم

76- موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

77- موقف الإمام علي × في الحديبية

78- ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)

79- نقش الخواتيم لدى الأئمة ^

80 - الولاية التشريعية

81 - ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة